الفصل السادس

الأثر الاقتصادي على الإمبراطورية الرومانية

تمثِّل الإمبراطورية الرومانية بعداً مهماً في مفاهيم الهوية والحضارة الغربية. كذلك يقدِّر العلماء الأوروبيون والأمريكيون أهمية تاريخ الدولة الرومانية. حتى الآن، على الرغم من هذا الاهتمام، لا تزال آلية عمل اقتصاد الإمبراطورية الرومانية منطقة خلاف بين العلماء الغربيين. ومن ذلك، لم يكن هناك توافق في الآراء بشأن نظام الإيرادات، الذي يزوِّد الحكومة الرومانية بالموارد المالية، التي تحتاجها لتمويل عملياتها السياسية، والحفاظ على جيشها المحترف.

وتقع في قلب هذا النقاش مسألة قدرة الإمبراطورية الرومانية في بداياتها على تحقيق مثل هذا المستوى الرائع من الاستقرار الاقتصادي والنجاح المالي. ويبدو أن الإنجاز الروماني أكثر استثنائيةً عندما يتم أخذ الظروف الاقتصادية والسياسية لأوروبا في القرون الوسطى في عين الاعتبار. ويمكن القول، لم تكن الموارد التي لدى أوروبا الغربية، والثروة، وفرص تطوير البنى التحتية، مماثلةً لتلك التي تم إنشاؤها من قبل الدولة الرومانية حتى اكتشاف الأمريكتين. وارتبط هذا الانتعاش الأوروبي بتوسيع المصالح التجارية في المحيط الهندي والشرق الأقصى. وحتى بعد الاعتراف الأكاديمي

بهذا الجانب الأخير من الماضي، لم تتم حتى الآن دراسة دور التجارة الشرقية في الحضارة الرومانية بشكل شامل.

الواردات الشرقية في المجتمع الروماني

تشير المصادر الرومانية إلى أن الإسكندرية كانت بوابة رئيسية للواردات الشرقية التي تدخل البحر الأبيض المتوسط. وكانت الإسكندرية مكاناً عالمياً كبيراً لالتقاء التجارة، حيث كانت تربط بين أوروبا وعالم البحر الأبيض المتوسط بأراضي المحيط الهندي شرقي أفريقيا، والجزيرة العربية، وبلاد فارس والهند والشرق الأقصى. يقول دايو كريسوستوم:

> تقع الإسكندرية على مفترق طرق العالم كله، وتخدم العالم كما لو كانت سوقاً يخدم مدينة واحدة، وهي متصلة بأقصى الدول وهذا السوق يجمع كل أنواع الرجال في مكان واحد.[١]

يشير سترابون إلى أن الإسكندرية كانت تهيمن على التجارة الشرقية لدرجة أنها كانت فعلياً تحتكر كل هذه الواردات. يذكر سترابون الذي كان يكتب في عصر أغسطس ما يلي:

> كانت في مصر احتكارات، فالإسكندرية وحدها هي المتلقي الرئيسي للبضائع (من الهند وشرق أفريقيا)، وهي المصدر الرئيسي للإمدادات إلى الأراضي الرومانية الأخرى.[٢]

سيطرت المدينة على تجارة البحر الأبيض المتوسط بسبب سيطرتها على الواردات الشرقية من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ لأنها كانت تقدم كميات هائلة من الحبوب والقمح إلى روما لإطعام سكانها في المناطق الحضرية الواسعة. يوضح دايو كريسوستوم:

إنكم أيها السكندريون تحتكرون النقل البحري في البحر الأبيض المتوسط كله، وذلك بسبب جمال مرافئكم، وحجم أسطولكم، وأسواقكم الغنية بالمنتجات الوفيرة القادمة من كل الأراضي. والمياه الخارجية التي تكمن وراء البحر الأبيض المتوسط هي في متناولكم، والبحر الأحمر والمحيط الهندي، الذي كان اسمه نادراً ما يُسمع في الماضي.[٣]

ويخبرنا سترابون أن الأسطول الروماني، الذي كان يبحر إلى الهند في أوائل عهد أغسطس، كان يضم ما لا يقل عن ١٢٠ سفينة. وإذا عادت كل سفينة بـ ٣٠٠ طن فقط من البضائع، فإنَّ أكثر من ٣٦٠٠٠ طن من البضائع الشرقية تصل إلى الإسكندرية كل عام. [٤] ويتحدث سترابون أيضاً عن الأساطيل الرومانية الكبيرة التي تتاجر مع شرق أفريقيا، وتسجل أن مصر هيمنت على الواردات العربية القادمة إلى أراضي البحر الأبيض المتوسط.[٥] وجلبت هذه الرحلات التجارية مزيداً من البضائع الشرقية الإضافية إلى الأسواق الرومانية. [٦]

إن أكثر الأماكن وضوحاً للبحث عن أدلة على سلع الشرق التي تدخل الإمبراطورية الرومانية هي الموانئ المصرية على البحر الأحمر. ولقد حافظت البيئة الصحراوية لمملكة برنيكي على الأدلة العضوية واسعة النطاق، التي تم تصنيفها من قبل علماء الآثار والنبات بعناية.[٧] وكان حجم التوابل التي مرت من خلال برنيكي هائلاً، وتم العثور على العديد من حبوب الفلفل الأسود في جميع أنحاء الموقع. وخلال أربعة مواسم من التنقيب، وجد علماء الآثار ١٦٠٠ حبة فلفل تقريباً داخل المباني، وبعض مواقع المخلفات الأثرية. وهذا أكثر من ضعف عدد حبات العدس التي عثر عليها في الموقع، على الرغم من أن العدس كان غذاء أساسياً في الميناء. وقد اشتملت أكوام المخلفات الأثرية القريبة من المعبد اليوناني المصري سيرابيس على عددٍ كبير من الفلفل المتفحم، وهو من المؤكد ما تبقى من قربان أجنبي قُدِّمَ في هذا الحرم. [٨] كما

ترك الهنود أيضاً قرابينهم النذرية ضمن حدود معبد سيرابيس. وكشفت التنقيبات الأثرية عن جرتين هنديتين كبيرتين مدفونتين في الفناء الروماني. وكانت إحدى هاتين الجرتين معبأتينِ بما يقرب من ٥٥ كجم من حبوب الفلفل الأسود ومغلقة بسدادة خشبية.[٩]

كشفت هذه الحفريات في برنيكي أيضاً عما يقرب من ٥٠ عيّنةً من الأرز في شكل بذور وقشور. وكانت واردات الأرز متجهةً إلى الأسواق الرومانية كمكوِّنٍ في الثريد الطبي، ولكن التجار الهنود الزائرين جلبوا أيضاً الإمدادات إلى الميناء لاستهلاكهم الخاص.[١٠] واستعمل الهنود زيت جوز الهند للحفاظ على حبال سفنهم، ولكنه كان أيضاً منتجاً غذائياً رخيصاً أتى إلى برنيكي من الشرق البعيد. وتم العثور على حوالي ٣٠ قطعة من جوز الهند في البلدة، معظمها في مستودعات القمامة. وجلب التجار الأجانب، وطواقم سفن الرومان العائدين من الشرق البعيد أيضاً الفولَ الندي الغني بالفوائد الغذائية لبرنيكي، حيث يزرع هذا النبات في جنوب آسيا، لكن تم العثور على العشرات من هذه الحبوب في مستودعات القمامة في برنيكي. وتظهر أيضاً البقايا الداخلية المجففة لفاكهة العنب الهندي في الميناء، والموطن الأصلي لهذه الثمار الصغيرة هو جبال الهيمالايا السفلى. وكونها كانت غنية بفيتامين (ج)، فقد كان يتم تناولها للحد من مخاطر مرض الأسقربوط ولا سيما أثناء الرحلة البحرية الطويلة إلى مصر.[١١]

وقد تم الحفاظ على سلع الشرق الخاضعة للضريبة في الإسكندرية في نصٍّ يسمى *التعريفة السكندرية*، ويشير هذا السجل إلى التنوع الهائل من واردات الشرق التي كانت تصل إلى الأسواق الرومانية في القرن الثاني الميلادي. ويحتوي هذا السجل على

العديد من السلع التي لم يردْ ذكرها في كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" ، بما في ذلك الواردات القادمة من الخليج العربي. وتسجل الوثيقة :

> أنواع السلع الخاضعة للضرائب: القرفة، الفلفل الطويل، الفلفل الأبيض، ورقة البربر، السنبل الهندي، بطنج، القرفة، المر، الحماما، الزنجبيل، التوابل الهندية، الحلتيت، الألوة، اللساس، الصمغ الفارسي، العقيق اليماني، الهيل، القرفة الخشبية، بضائع قطنية، الجلود البابلية، الجلود الفرثية، العاج، الحديد الهندي، الكتان، جميع أنواع الأحجار الكريمة - اللؤلؤ، الجزع العقيقي، حجر الكحل، الزمرد، الألماس، الياقوت، الفيروز، البريل، حجر السلحفاة، العقاقير الهندية، الحرير الخام، أقمشة كلها أو بعضها من الحرير، قماش مصبوغ، كتان مطرز، خيوط حرير، الهنود المخصيُّون؛ الأسود، اللبوات، النمور (القطط الكبيرة عديمة اللبدة)؛ الفهود، الصبغة الأرجوانية، الصوف، الصبغ، والشعر الهندي.[١٢]

تم ذكر ٥٦ عنصراً من الواردات في الضرائب. ومن السلع التجارية التي يمكن تحديدها، أكثر من ٣٠ سلعةً كانت من المنتجات الهندية، في حين أن هناك العديد من السلع التابعة لأراضي الفرثيين. وما لا يقل عن ٢٣ سلعة من التوابل، و١٠ أنواع من الأحجار الكريمة، و١٠ أنواع من الملابس. وتقريباً لم تترك جميع هذه السلع سوى أثر ضئيل أو معدوم.[١٣]

لقد ناقش بلني المنتجات الشرقية واستخداماتها في المجتمع الروماني. كما أعطى أيضاً أسعار أكثر من ٢٠ سلعةً أساسيةً شرقيةً تعكس على الأرجح قيمة التجزئة في روما.[١٤] وكان من بين السلع الشرقية ذات الأسعار المنخفضة اللبان، وكان يُباع الرطل الواحد بثلاثة دينارات، والفلفل، الذي يكلف ٤ دينارات للرطل الواحد.[١٥] وهذه كانت أجرة عامل عادي في عدة أيام ، ولكن هذه المنتجات ستظل في متناول شريحة كبيرة من السكان الرومان.[١٦] وبالنسبة لمعظم الناس، فإن شراء البخور والتوابل ربما

يكون محدوداً، ومن حين لآخر.[١٧] ومع ذلك، فإنَّ شعبية هذه المنتجات قد ضمنت التأثير التراكمي لجميع المشتريات الصغيرة، مما عمل على تحقيق تجارة دولية واسعة.

في عهد الإمبراطورية، أصبح الفلفل عاملاً مهماً في النظام الغذائي الروماني، وانتشر الطلب على التوابل في منطقة البحر الأبيض المتوسط إلى أوروبا الغربية. يعتبر "كتاب الطبخ" لأبيكيوس تجميعاً لأوائل النصوص الرومانية حول إعداد الطعام، وتم ذكر الفلفل في كل وصفةٍ تقريباً بما فيها تلك المتعلقة بالوجبات الشعبية.[١٨] وكان الفلفل يرش في الصلصات، التي تقدم مع الأطعمة البحرية، وفي مرق السلطة.[١٩] كما تم ذكر التوابل في عمليات إعداد اللحوم، وكانت تستخدم أيضاً "لحفظ" النبيذ باعتبارها نكهة.[٢٠] ويمكن استخدام الفلفل بكمياتٍ صغيرةٍ نسبياً؛ ليعزِّز إلى حدٍ كبيرٍ النكهة، ويجعل الأطعمة القابلة للتلف مستساغةً لفترة أطول. وربما استغل ذلك الطهاة وبائعو الطعام في المناطق الحضرية الذين أضافوا كميات صغيرة من التوابل لتحسين مبيعاتهم. وتعجَّب بلني من أن المجتمع الروماني كان يرسل الناس إلى حدود العالم المعروف من أجل تحسين مذاق طعام البحر الأبيض المتوسط. وكتب يقول "نرغب الفلفل فقط لطعمه اللاذع، لذلك جئنا به قاطعين كل هذه المسافة من الهند".[٢١] ويتهكم بترونيوس على هذا الوضع عندما يرسل رجل أعمال وكلائه إلى الهند لجمع أبواغ عيش الغراب الدقيقة لتحسين طعم العيد الروماني.[٢٢]

في عصر أغسطس، تم بيع التوابل في الأكشاك في الشوارع الخلفية من روما بالقرب من أرصفة تفريغ السفن. ورسم هوراس صوراً للمنطقة مغطاةً بورقةٍ رخيصةٍ مهملةٍ كانت تُستخدم لتغليف أوزان الفلفل. وتحدث عن الذهاب "وصولاً إلى الشوارع الخلفية، حيث يبيعون التوابل والنفايات الورقية مبعثرةً في كل مكان".[٢٣] ويعتقد العلماء أن الحكومة الرومانية ربما استولت على ربع السلع الشرقية التي تدخل مصر

بفرض ضريبة تسمى ضريبة الربع (tetarte).[٢٤] لذلك كان بإمكان الدولة الحصول على كميات كبيرة من المنتجات الشرقية، التي يمكن أن تُباع في الإسكندرية، أو السلع المخزنة في روما لبيعها بالتجزئة لاحقا.

وكان للمنتجات الشرقية أهمية كبيرة في الأدوية الكلاسيكية والمراسم الدينية الرومانية. وبالتالي، أصبح من المهم بالنسبة للحكومة الرومانية الحفاظ على مخزونات كبيرة من هذه المنتجات في موقع مركزي. وفي عهد الإمبراطور دوميتيان، تم بناء مستودعات هائلة للتوابل تُدعَى"هوريّا بيبراتاريا" في المنتدى الروماني بالقرب من الكولوسيوم.[٢٥] وكانت هذه المرافق تُدعَى"مستودعات الفلفل". ولكن فضلاً عن تخزين التوابل الهندية في هذه المرافق، فقد كان يتم أيضاً تخزين البخور العربي.[٢٦] وكان المستودع الواسع ينقسم إلى مخازن متعددة صغيرة الحجم، لكنها كانت تحتوي أيضاً على سلسلة من الساحات، المرتفعة والمغلقة، ومنها كانت الحكومة تبيع، أو توزع إمداداتها من التوابل. كانت هناك أحواض مياه وفيرة وصهاريج في جميع أنحاء المجمع لترطيب الأجواء التي تسببها الرائحة الجافة والثقيلة لهذا المخزون الثمين.

وتدل الكاتدرائية التي بناها الإمبراطور ماكسينتيوس في الموقع على أهمية هوريّا بيبراتاريا في الفترة الرومانية المتأخرة. وكانت كاتدرائية ماكسينتيوس أكبر مبنى مغلق في المنتدى الروماني، وكانت بمثابة المركز الإداري للمدينة بأكملها.[٢٧] وقد بذلت محاولات حديثة لتقدير قدرة تخزين الحبوب في المستودعات الرومانية الكبيرة وتشير هذه الدراسات إلى أن الطابق الأرضي من هوريّا بيبراتاريا كان من الممكن أن يُخزن فيه على الأقل ٥٨٠٠ طن من التوابل. [٢٨] لوضع هذا الرقم في سياقه، فإنَّ ٥٨٠٠ طن من الفلفل تقدر قيمتها بنحو ٢٤٠,٠٠٠,٠٠٠ سيسترس. وإذا وزِّع هذا المبلغ بالتساوي بين سكان الإمبراطورية، لحصل كل خمسة أشخاص على رطل من التوابل.

تدل الآثار المكتشفة حتى الآن على أن الفلفل وصل إلى جميع مناطق الإمبراطورية الرومانية، وكان بإمكان الناس من ذوي الدخل المتواضع الحصول عليه. على سبيل المثال، تم اكتشاف قشور الفلفل في محجر مونس كلاوديانوس في الصحراء الشرقية القاحلة في مصر. كما فسرت بعض الأشياء التي تم اكتشافها في بلاد الغال وبومبي على أنها قدور للفلفل.[٢٩] وقد اكتشفت حبوب الفلفل في الحفريات التي تمت في أحد معسكرات الجيش الروماني في ألمانيا على أطراف الإمبراطورية.[٣٠] وتقدم ألواح الكتابة التي عثر عليها في فيندولاندا أيضاً أدلة على أن شحنات الفلفل كانت تصل إلى الجنود في بريطانيا حتى سور هادريان.[٣١]

لقد تم استخدام المنتجات الشرقية وعلى نطاق واسع في الأدوية. على سبيل المثال استخدم الصيادلة الرومان المر كعنصرٍ في كثيرٍ من تركيباتهم. وأثناء صلب المسيح عرض عليه "النبيذ المختلط بالمر"• ربما بوصفه مسكِناً.[٣٢] وتم وصف مزيج من اللبان والمر في دهان مع الشمع للمساعدة في تهدئة آلام الظهر وآلام العضلات. [٣٣] ألَّف مؤلف روماني اسمه ديوسكوريديس كُتِّيباً عن الأدوية التي تحتوي على إشارات عديدة إلى المواد الشرقية كمكونات في العلاجات. ووردت المنتجات الشرقية في معالجة الشكاوى الطبية الشائعة نسبياً، مما يشير إلى استهلاكها على نطاقٍ واسع.[٣٤] وكانت التوابل مثل الفلفل من المكونات المهمة في هذه التركيبات الطبية، من تحفيز المقويات التي يُعتقد أنها تعالج العجز، إلى القول بأنها تخفِّف من حدة أمراض الجهاز الهضمي.[٣٥] وربما أن الهنود قد بدؤوا في الإشارة إلى الفلفل باسم "شغف اليافانا" ويرجع ذلك جزئياً إلى أنهم كانوا يعرفون أن الرومان يستخدمون هذه المادة لتقوية الشهوة الجنسية.[٣٦]

• يعتقد النصارى بصلب عيسى عليه السلام وذلك مخالفاً للعقيدة الاسلامية . (المترجم).

كانت التجارة في العلاجات الطبية عملاً تجارياً مربحاً داخل المقاطعات الرومانية، حيث يمكن تتبع وجود الأدوية في المخلفات الأثرية، إما في شكل زجاجات صغيرة، أو حويصلات كانت تحتوي على علاجات سائلة، أو زيوت مهدئة. وكان المر والسنبل الهندي من المكونات الشائعة في أدوية العين التي أعدها المتخصصون الذين ختموا العينات الخاصة بهم بـ"خاتم" شخصي يدل على الجودة. تم العثور على مئات من أختام أطباء العيون المستخدمة لطبع عيون العبيد في شمال غرب أوروبا، وعثر على واحدٍ منها في أيرلندا. (٣٧)

وكان حرق البخور والأخشاب المعطرة أمراً منتشراً أيضاً في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية.(٣٨) حيث كانت شوارع المدن الرومانية المزدحمة بالعامة تعج بروائح الأجساد والصرف الصحي والروث والقمامة المتعفنة. في هذه المناطق المكتظة بالسكان وضع البخور في الفوانيس المصممة خصيصاً للإشعال؛ لإخفاء الرائحة الكريهة في الشوارع، وتحسين الجو داخل المباني العامة والمنازل المحلية.(٣٩) ونظراً لأهميته في العبادة، كان يحرق البخور بكميات وفيرة في المعابد، وأثناء المباريات العامة، والمواكب الاحتفالية، وفي احتفالات النصر الرومانية. وكان حرق البخور من أسس الطقوس الميثرانية في وقتٍ كانت تنتشر فيه هذه الطائفة الإيرانية في شرائح من الجيش الروماني في المقاطعات الغربية. وأحرق أتباع ميثراس البخور في مصابيح فخاريةٍ كبيرةٍ مجوفةٍ بحيث يصب الضوء والدخان من أنماط معقدة على سطح السفينة. وأثرت هذه الممارسة الدينية في تقاليد غيرهم من الناس، وقد عُثِرَ على بقايا من هذه الشعلات في معابد آلهة السلت.(٤٠) وكان السكان الرومان يقدِّمون البخور واللبان بشكل روتيني للآلهة المنزلية في الأماكن الداخلية، كما كان يتم إحراقها في الأعياد وطقوس التطهير ومراسم الزفاف.

هذا وتدل قائمة تسوُّق اكْتُشِفَتْ في بومبي على أنواع البضائع التي كان يتم شراؤها بشكل منتظم من قبل الأسر الرومانية العادية نسبياً، التي تتكون من ثلاثة أشخاص وعبد. وتغطي القائمة فترة ثمانية أيام، ومن بين السلع الأساسية التي طلبت في أحد الأيام، الخبز والتمر والجبن، وقليل من البخور. وكان البخور أرخص هذه السلع، وكانت أقل كمية تُشترَى منه تستحق واحداً على ١٦ من الديناريوس.[٤١]

وكان بلني على عِلْمٍ بأن هذه العروض الصغيرة والمتكررة أوجدت طلباً هائلاً في السوق. ولفت الانتباه أيضاً إلى الاتجاه المتنامي في مراسم حرق البخور في الجنازات لتكريم القتلى وإخفاء رائحة اللحم المحترق.[٤٢] ويقول بلني:

> دعونا نأخذ في الاعتبار العدد الكبير للجنازات التي يتم الاحتفال بها في جميع أنحاء عالمنا في كل عام، وأكوام البخور التي تتكدس في المحارق لتكريم جثث القتلى. وأيضاً الكميات الكبيرة من القمح التي تقدم تدريجياً للآلهة بالحبة الواحدة.[٤٣]

ولقد أعرب بلني عن قلقه من أن ازدياد الطلب الروماني في عصره على البخور كان بهدف الاستعراضات اللافتة للأنظار أكثر من تكريم الآلهة. يقول بلني في هذا الصدد:

> تم عرض الكثير جداً من الكماليات حتى في أدوات الموت. وكانت جزيرة العرب تستحق لقب "المحظوظة"؛ لأننا نحرق مع الموتى تلك المنتجات التي فهمنا أنها تنتج أصلاً لخدمة الآلهة... ومن كل هذه المواد العطرية أود أن أعرفُ مقدار ما يذهب لآلهة السماء، وكم يُنفق على الأشخاص في الأرض.[٤٤]

في عصر خوليو كلودين، جمعت الحكومة الرومانية كميات كبيرة من المنتجات الشرقية من ضرائب الربع المفروضة على الواردات. وكانت هذه المخزونات تتراكم بسرعة إذا لم تتخلص السلطات الإمبراطورية منها باستمرار، أو بيعها للجمهور الروماني. وهذا ما يُفسِّرُ الحادثة التي ذكرها بلني عندما حرق الإمبراطور نيرون كمية

كبيرة من اللبان حِداداً على وفاة رفيقه الحبيب بوبايا.[٤٥] وهذا المشهد تطلَّب عدة آلاف من أطنان البخور، وكتب بلني في هذا الشأن ما يلي:

> يؤكد أولئك الذين هم أكثر درايةً في هذا الشأن على أن الجزيرة العربية لا تنتج في السنة كمية العطور التي أحرقها الإمبراطور نيرون في جنازة رفيقه بوبايا.[٤٦]

ربما في هذا العرض الذي لا يُصدَّق تم إحراق ما قيمته عدة سنوات من المخزونات الحكومية، ولكن الدولة بسرعة قد حصلت مرة أخرى على إمدادات أخرى عندما عادت الأساطيل التجارية من الشرق البعيد وخضعت مرة أخرى للضريبة.

وكان للبخور أهمية دينية في المجتمعات التابعة لروما، وبدأت تزداد أهمية المر في الشعائر الجنائزية اليهودية. ويذكر *إنجيل يوحنا*:

> جاء نيقوديموس وجلب معه خليطاً من نبات المر والصبار وزنهما ما يقرب من ١٠٠ رطل، لذا أخذوا جسد المسيح، وقاموا بلفه في لفائف من الكتان بها توابل، وكما هي العادة في الدفن عند اليهود.[٤٧]•

ومع زيادة التجارة وتطورها تعاظمت القيمة الدينية للمنتجات الهندية في مجتمع البحر الأبيض المتوسط. حيث تطورت أهمية السنبل الهندي في الطقوس الاحتفالية، والتشريفات الدينية، وطقوس الاحتفال بالموتى. وتصف فقرة في *العهد الجديد* كيف تم دهن جسد المسيح بزيت السنبل الهندي المكلف، وهو عمل كان مرتبطاً بشكل رمزي مع استعدادات دفنه.[٤٨]•

• انظر الاشارة في ص ٢٧٦ (المترجم).

• انظر الاشارة في ص ٢٧٦ (المترجم).

كان المجتمع الروماني يحوي العديد من الاتجاهات المعقَّدة حول المنتجات الشرقية، حيث كانت حقيقة استخدام المواد "الغريبة" التي كانت مطلوبة للدواء وللممارسات الدينية، كانت تستخدم أيضاً "بشكل طائش" للعرض الشخصي من بين القضايا الرئيسية التي شغلت علماء الأخلاق الرومان. وكان السنبل الهندي مهماً في الممارسات الجنائزية، ولكن بلني كتب أن هذا المنتج قد احتل "المكان الرئيسي" بين العطور الرومانية.[٤٩] وزاد استخدام المراهم المصنوعة من نبات المر، والسنبل الهندي، على نحو متزايدٍ كعطورٍ شخصيةٍ جذابة. حتى الجنود الرومان بدأوا في وضع الزيوت المعطرة التي كانت قبل ذلك تُستخدم لدهان الرايات العسكرية في الطقوس المقدسة.[٥٠] وكتب بلني ما يلي:

> والشيء المدهش هو أن هذا الإشباع الفاخر انتشر حتى وصل إلى معسكرات الجيش. كانت الشعارات والرايات مغبرة ورؤوسها حادة. ومع ذلك فهي تمسح الآن في أيام الأعياد... وبالتالي هناك سابقة بالنسبة لأولئك الذين يضعون المراهم تحت خوذاتهم العسكرية.[٥١]

ويسجل سوتونيوس أنه في عصره انغمس عدد من القوات الرومانية في كماليات "زائدة". وكان معروفاً على نطاق واسع أن الإمبراطور المتواضع فيسباسيان كان لا يوافق على هذه الممارسات. وكتب سوتونيوس ما يلي:

> جاء ضابط شاب تفوح منه رائحة العطور، ليشكر الإمبراطور على رتبة قد حصل عليها. حوَّل فيسباسيان رأسه بعيداً باشمئزاز وألغى الأمر، مضيفاً توبيخاً شديد اللهجة "كنت أفضل لو كانت رائحتك مثل رائحة الثوم النتن".[٥٢]

وجدت موضة الزيت المعطر للشعر في عصر الجمهورية الرومانية، ولكن هذه الممارسة اكتسبت شعبية أكبر في ظل حكم الأباطرة.[٥٣] ويذكر بلني أنه كان هناك رجل مختبئ من أعدائه لكن مطارديه تمكنوا من العثور عليه بسبب قوة رائحة عطوره التي

كانت "تفوح منه". [٥٤] وحذَّر أوفيد النساء بألا يتزوجن الرجال الذين يضعون على شعرهم مرهم السنبل الهندي.[٥٥] وشكا رجل عسكري رجلاً فاحت منه رائحة شعره في جميع أنحاء مسرح العمليات.[٥٦] حتى قيل إن نيرون كان يضع الزيوت المعطرة على باطن قدميه. [٥٧] وانتقد بلني بشدة الناس الذين يعطرون غرفهم الخاصة لإخفاء روائح أخرى. [٥٨]

وكان بلني يعتبر العطر من أكثر السلع الباهظة الثمن؛ لأن تأثيره يتلاشى بعد وقتٍ قصير. يقول بلني في هذا الصدد:

> كان ثمن بعض المراهم يفوق ٤٠٠ ديناري للرطل الواحد. وكانت تُدفع مبالغ ضخمة للحصول على الترف الذي هو تسلية بالنسبة للآخرين. وأن الشخص الذي يضع العطور لا يشمها.[٥٩]

يمكن استغلال تكلفة العطور وطبيعتها المتطايرة بطرقٍ أخرى، فقد حاول مسؤول مدني من شمال أفريقيا إخفاء جزء من رشوة كبيرة مقدارها ٢٠٠٠٠٠ سيسترس إلى حاكم روماني فاسد من خلال إدخالها في كتبه تحت "العطور". وكان يتوقع أن إنفاق ١٠٠٠٠ سيسترس على بعض المستحضرات الزيتية المستخدمة لعلاج الجروح (ungents) لن يثير الشكوك. [٦٠]

وقد ثبت أن صانعي العطور، المعروفين باسم *ungentarii*، يترددون على منطقة تسمى سيبلاسيا في كابوا، ولكن كان هناك صانعو عطور يعملون في كثير من المناطق الحضرية في الإمبراطورية الرومانية.[٦١] وأصبحت المكونات الشرقية الغريبة شائعة في مستحضرات التجميل التي تستخدمها المرأة الرومانية من الطبقة الغنية. ويقدم أوفيد وصفة لـ"كريم جمال" يمكن أن تضعه المرأة على وجهها.[٦٢] يشير جوفينال إلى امرأة رومانية كانت تستخدم "تلك الروائح الهندية المستوردة والمستحضرات التي تشتريها لعشيقها المجهول".[٦٣]

وكان للعطريات الشرقية أيضاً تأثيرٌ ممتع عندما يتم مزجها مع المشروبات. وأصبح من المألوف إضافة مواد غريبة إلى النبيذ الروماني منها السنبل الهندي، والقرفة، والزنجبيل، واللبان والمر.[٦٤] يقول بلني في هذا الخصوص:

> في الوقت الحاضر يضع الناس العطور في مشروباتهم، ويحبون المرارة الناتجة عن ذلك. وبهذا التبذير، تشبع العطور إحساسينِ في آن واحد.[٦٥]

يشير فيرجيل أيضاً إلى أن المستهلكين الأثرياء في المجتمع الروماني بدأوا في إعطاء نكهة لزيت الزيتون بالقرفة.[٦٦] وتأتي الإشارة إلى المواد المنكهة المتاحة في الأسواق الرومانية من حطام سفينة بوتسينو. وكانت سفينة تجارية كبيرة غرقت قبالة الساحل الشمالي الغربي لإيطاليا في وقتٍ ما في أواخر القرن الأول قبل الميلاد. وعثر علماء الآثار الذين يجرون أبحاثاً تحت الماء حول البضائع الغارقة على صناديق خشبية مستطيلة غير عادية مزودة بأغطية منزلقة. ووجدوا أن هذه الصناديق مكتظةً بالعديد من العلب المرتبة بعناية والمبطنة بالقصدير، وكل واحدة منها معبأة مع ثلاث أسطوانات صغيرة مغلقة بأغطية خشبية محكمة. ومما أثار دهشتهم عندما فتحوا الأغطية فوح الروائح القوية للتوابل القديمة، ومنها القرفة، والفانيليا، والكمون. وكانت الصناديق تحتوي على ١٣٦ أسطوانةً مُحمَّلةً بالتوابل من مختلف أنحاء العالم القديم.[٦٧]

ومما يدل على تجارة التجزئة في العطور الرومانية وجود زجاجات صغيرة كانت تُستخدم للزيوت المعطرة تُدعَى انجنتاريوم (قوارير العطور الفخارية)، حيث تظهر هذه الاكتشافات بين رفات النساء الرومانيات، وكذلك في المقابر المصرية، التي تحتوي على صور للمُتوفَى على أغطية النعش.[٦٨] ولقد قام الرومان بتخزين العطور السائلة في مزهريات حسَّاسة من المرمر، مثل تلك التي استخدمتها مريم المجدلية في *العهد الجديد*.[٦٩] وكانت الحاويات الفاخرة يُعاد استخدامها، وكان بها محتويات مختلفة كثيرة

على مرِّ الزمن. وبالتالي، يمكن للأدلة الأثرية أن تكشف عن النطاق الجغرافي للسوق، ولكن لا يمكنها سوى أن تعطي انطباعاً عن حجم التبادل التجاري فيه.

كان هناك طلبٌ كبيرٌ على الأقمشة الشرقية والمجوهرات في المجتمع الروماني، حيث كانت الموضة الدافع الأكبر لهذه التجارة. وكان الحرير الصيني القديم من المواد الكثيفة نسبياً، التي كانت يُعاد نسجُها في الورش الرومانية؛ لإنشاء أقمشة أنيقة، خفيفة الوزن، مماثلة للحرير، مألوفة لدى المجتمعات الحديثة. كما أضاف عمال النسيج الرومان على هذه العملية مرحلةً أخرى، وهي إعادة نسج الحرير إلى مادة شفافة مثل الشاش.

في البداية، كانت الملابس الحريرية شائعة بين أكثر العناصر "سيئة السمعة" في المجتمع الروماني. وفي الكتابات العائدة لعصر أغسطس، يشبه هوراس المربية الرومانية بالعاهرة. حيث وصف العاهرة وهي واقفة تعرض نفسها وهي ترتدي ملابسها الحريرية الشفافة. ويعلّق:

> يمكنك أن تراها في ثيابها الحريرية كما لو أنها عارية. يمكنك فحصها لمعرفة ما إذا كان لديها ساق هزيلة، أو قدم قبيحة. يمكنك تقدير شكلها بالكامل بعينيك.(٧٠)

وكان المتوقع من النساء الرومانيات المحترمات المنحدرات من عائلات غنية أن يخفين أنفسهن تحت طبقات من الملابس التقليدية المصنوعة من الكتان، أو القطن، ومع ذلك، انتشرت موضة الأقمشة الحريرية إلى هذه الطبقات الأكثر احتراماً. وبعد وقتٍ قصيرٍ كانت شرائح كبيرة من السكان ترتدي الأقمشة الحريرية خفيفة الوزن؛ لأنها كانت مريحةً وأنيقة. وكانت فائدة الحرير شبه الشفاف أنه كان يعطي النساء المحترمات في المجتمع الروماني الفرصة لعرض قوامهن، في حين أنهن لا يزلن يرتدين الملابس التقليدية.(٧١) ولم يمضِ إلا وقت قصير حتى أصبحت الملابس الحريرية تمثل غواية للنساء. وتطورت أيضاً رغبات النساء الرومانيات الغنيات في الحصول على

إكسسوارات الأزياء، ومنها المظلات الحريرية الملونة المصنوعة من الأقمشة الدقيقة مثل الشاش.[٧٢] ويمكن للحرير المعاد تصنيعه امتصاص الصبغات الطبيعية لتشكيل ألوان نابضة بالحياة تتفاعل في كثيرٍ من الأحيان مع أشعة الشمس لتنتج ظلالاً عميقة ومتلألئة من اللون النيلي، والقرمزي، ولون أكسيد الرصاص الأصفر.

ولقد أنشئ سوق للحرير في *فيكوس توسكوس* بالقرب من وسط روما. ويذكر مارشال أن أجود أنواع الأقمشة كانت متوافرة في هذا الحي.[٧٣] وكان مظهر الحرير في الأزياء النسائية الساحرة والكاشفة واحداً من أكثر الاستخدامات البصرية لفتاً في الواردات الشرقية. ولما كان النسيج مكلفاً وغريباً، سرعان ما أصبح هدفاً للانتقادات الأخلاقية التقليدية.[٧٤] يقول بلني عن الحرير المستورد: "إنه يجعل السيدة الرومانية تتماوج بملابس شفافة أمام الناس". في حين تحدث سينيكا قائلاً: "إن هذه الملابس لا تخفي شيئاً من جسد المرأة".[٧٥] ويقدم بترونيوس رأيه القائل بأن العرائس قد تذهب أيضاً عرايا؛ لأن بزاتهم كانت شفافة، ويكتب عن الملابس الحريرية "أنه نسيج مثل لعاب الشمس، شفاف كالهواء".[٧٦] ويعبِّر سينيكا عن رأيه حول هذا الموضوع قائلاً:

> أرى الملابس الحريرية - ولكن كيف يمكن أن تُسمَّى هذه ملابس عندما لا تقدِّم شيئاً يمكنه حماية الجسم، أو يبدي أي حياء؟ عندما ترتدي المرأة هذا الحرير لا يمكنها أن تقول بضمير مرتاح أنها ليست عارية. ويتم استيراد هذا الحرير بتكلفة باهظة من دول غير معروفة لنا ولو تجارياً. يتم استيراد الحرير حتى يتسنى للنساء المتزوجات لدينا أن يظهرن أكبر قدرٍ من أجسادهن للناس في الشارع كما يبدين لعشاقهن في غرفة النوم.[٧٧]

وعلى الرغم من تهويل سينيكا، إلا أن الموضة النسائية في الإمبراطورية الرومانية كانت قد شجعت على التجارة الخارجية، مما ساهم في تدفق مبالغ طائلة من الأموال الرومانية للخارج في سبيل الحصول على الأقمشة.

في هذه الأثناء تطورت موضة أخرى بين الرجال الرومان الأثرياء تتمثل في ارتداء الملابس التي بها خطوط من الحرير الملون المدموج في تصميمها. وعلى عكس الأزياء النسائية، كان النسيج في أزياء الرجال دقيق الغزل وغير شفاف. وبعد وقتٍ قصيرٍ حملت السترة الرومانية (التوجا)، والرداء الروماني (التونيك)، المصنوعانِ من الكتان الأبيض، شرائطَ وجوانبَ ملونة في هذه الأقمشة الحريرية الدقيقة. ولقد نظر الرومان التقليديون إلى هذه الموضة بريبة. وفي عام ١٦م سَنَّ مجلس الشيوخ الروماني قانون الحد من ارتداء الحرير بين الرجال من طبقة النبلاء. وكان هذا الإجراء محاولةً من ناحية للحد من التباهي المكلف في سياسة مجلس الشيوخ، لكنه ومن ناحية أخرى قد راقَ لهؤلاء الذين انتقدوا الطابع "النسوي" للأقمشة الجديدة. يقول تاكيتوس في هذا الصدد:

> ندَّد قنصل وقاضٍ سابق بالبذخ الحالي. وكان استخدام الأطباق المصنوعة من الذهب للحفلات الخاصة محظوراً، وكذلك أزياء الحرير المنحطة التي تم اعتمادها في لباس الرجال.(٧٨)

كانت تدابير الحد من اتجاهات الموضة غير ناجحة وخصوصاً عندما تجاهل كاليجولا الحظر وظهر أمام العامة مرتدياً الحرير.(٧٩) وعندما كتب بلني عن المجتمع الروماني، كان الحرير شائعاً كملابس للرجال الأثرياء. ورثى بلني حقيقة أن الأجيال السابقة من الرومان كانوا مقتنعين بارتداء التوجا، وتحمُّل دروع الصدر الجلدية الثقيلة في أشهر الصيف الحارة. وشكا من أن الرومان الآن يفضِّلون الملابس الفضفاضة، وخفيفة الوزن، وسخر من أن الاتجاه المقبل في الأزياء بين الرجال الرومان قد يكون من الثياب الحريرية التي يرتديها الخصي الفرس. وقد كتب في هذا الشأن:

> الآن حتى الرجال سوف يرتدون الملابس الحريرية في فصل الصيف بسبب خفتها، وهم لا يشعرون بالخجل. في الماضي اعتدنا على ارتداء السترة الجلدية، ولكن أزياءنا

أصبحت الآن غريبة حيث تعتبر التوجا ثقيلة بلا داعٍ. لقد تركنا الملابس الحريرية الآشورية للنساء – حتى الآن! (٨٠)

استورد الرومان أيضاً كميات كبيرة من القطن الهندي، ولكن لأن مصر تنتج أيضاً هذا النسيج، كان يصعب تقدير تأثير هذه التجارة على أسواق البحر الأبيض المتوسط.(٨١) وكان يتم الاحتفاظ بالأقمشة القديمة فقط في ظروف قاسية، ولكن مع ذلك تم العثور على الحرير الصيني القديم في مقابر الأبراج على مشارف تدمر.(٨٢) أيضاً لقد تم اكتشاف قطعة صغيرة من الحرير في قبر قديم في كولشستر في بريطانيا الرومانية.(٨٣) وتشير الصور في الغرف المكتشفة في بومبي وهيركولانيوم إلى أن الأقمشة الشفافة الخفيفة قد حظيت بشعبية كبيرة بين النساء الرومانيات الثريات. وكانت العباءات والشالات في هذه الصور تتميز بمجموعة رائعة من الألوان وصورت بثنيات خاصة من الحرير.(٨٤)

وصلت تجارة الحرير بدورها إلى الحدود الشمالية لبريطانيا، حيث تم استخدام الحرير الصيني المعاد تشكيله في لافتات العسكرية الرومانية بسبب شفافيته، وخفة وزنه، وألوانه الواضحة المشرقة. ويحيي نقش عثر عليه قرب سور هادريان ذكرى تاجر تدمري كان مقيماً في بريطانيا، وكان يُزوِّد وحدات الحدود العسكرية بلافتات الحرير.(٨٥)

كانت هناك موضة كبيرة في المجتمع الروماني تتمثل في استخدام اللؤلؤ الشرقي، والأحجار الكريمة، والمجوهرات، وغيرها من أدوات الزينة. ويصف مارشال المحلات التجارية باهظة الثمن في المنتدى الروماني، حيث يمكن شراء هذه المواد. حيث يكتب في هذا الصدد:

لقد تذمر "شكا ماموراً" من فساد بعض الأواني البلورية بفعل الزجاج، حيث وضع علامات على ١٠ أكواب، ونحَّاها جانباً... ثم قام بعد الزمرد المزين بالذهب،

وفحص أكبر لؤلؤة تُعلَّق في الأذن. ونظر في كل عداد من عدادات الجزع العقيقي الحقيقية، وشكك في قيمة بعض أحجار اليشب الكبيرة.[٨٦]

طوال هذه الحقبة، تطورت الموضة الرومانية على نحوٍ متزايد وبدأت تجد طرقاً مبتكرةً لعرضِ مزيدٍ من الثراء. وبناءً على ذلك، بدأ العديد من الرجال الرومان الأثرياء ارتداءَ الأحجار الكريمة الشرقية المحفورة في كثيرٍ من الأحيان كنقشٍ في الخاتم.[٨٧] وكتبَ مارشال عن أحد الأصدقاء، الذي كان يرتدي الجزع العقيقي، والزمرد، والألماس على أصابعه.[٨٨] وأصبح استخدام بريل التاميل في المجوهرات الرومانية منتشراً، وكتب بروبيرتيوس عن المحرقة الجنائزية لحظيةٍ كانت قد أحرقت، وكان العقيق، وخواتم البيريل لا تزالانِ تزينانِ أصابعها.[٨٩]

كما تحدث بلني أيضاً عن "هوس" الكريستال. وأصبح أحد الأحجار الكريمة من إيران ويُدعَى الفلورسبار شائعاً بين الرومان الأثرياء، الذين كانوا ينظمون حفلات العشاء الباهظة.[٩٠] وكان لكؤوس الشرب الدقيقة المصنوعة من الفلورسبار بريقٌ زجاجيٌّ، حيث كانت ألوانه تتراوح بين الأرجواني، والأزرق، والأسود، والبرتقالي المحمر. وتشمل الأمثلة الأشكال الشفافة، التي بها أوان متعددة، أو شظايا من البلور. وكان لبعضٍ منها وميضٌ. وربما تتوهج في بيئة معتمة عندما تتعرض للحرارة.[٩١] كما قام الرومان أيضاً بتنقيع كؤوس الفلورسبار في عطور مثل المر؛ لإضافة نكهة إلى محتوياتها. ويدلل بلني على هذا البذخ عندما يتحدث عن قنصل سابق دفع ٧٠٠٠٠ سيسترس مقابل كأسٍ واحدٍ من الفلورسبار. كان الرجل يعشق كثيراً هذا الشيء ومضغ حافته. وعلى الرغم من الأضرار التي لحقت به كانت قيمته مرتفعة حسب تزايد الطلب على هذه الموضة.[٩٢] وهناك قنصلٌ سابقٌ آخر يُدعَى تيتوس بترونيوس حطَّم مغرفة من الفلورسبار تُقدَّر بـ٣٠٠٠٠٠ سيسترس قبل انتحاره بناءً على أوامر نيرون. ويبدو أنه كان يريد أن يحرم هذا الإمبراطور من التذكار الثمين.[٩٣] هذه الموضة

الخاصة بالفلورسبار سرعان ما انتشرت في جميع أنحاء المجتمع الروماني الغني. يقول بلني في هذا الصدد:

> لقد دخلت الأواني الفلورسبار الآن في الاستخدام اليومي، ويسعى الناس بشغفٍ للحصول على هذه المادة من أجل منصات العرض، وأدوات المائدة. وهذا النوع من الإسراف يزيد يومياً.[٩٤]

ومع تطور هذه الموضة بدأت تظهر الأحجار الكريمة كزخارف لتزيِّن الكؤوس المستخدمة في المآدب الرومانية. ولاحظ جوفينال:

> الكأس الموجود في يد فيرو مُطعَّم بالعنبر، ومُرصَّع بالبريل. ولا يحق لك أي ذهب منه، أو إذا كان ذلك، فإنك ستشاهد وتعد الجواهر وتهتم بأظافرك الحادة. اعذرْ قلقه، ولكن حجر اليشب الدقيق محل إعجاب شديد! وبالنسبة لفيرو، مثل آخرين كثيرين، قام بنقل الأحجار الكريمة التي ينبغي أن تكون على خواتمه إلى كؤوسه.[٩٥]

أدرك بلني أن هذه الموضة لا يمكن أن تكون مقيَّدة وعلَّق قائلاً: "لا يمكننا انتقاد استخدام أكواب الشرب المزينة بالأحجار الكريمة، والخواتم، التي تتلألأ بالجواهر، فهذه المواد الآن شائعة الاستعمال."[٩٦]

ولقد حققت المجوهرات الشرقية بين النساء الرومانيات شعبية هائلة.[٩٧] ووصف هوراس كيف أظهرت المربيات الرومانيات المحترمات صفوفاً من الزمرد، واللؤلؤ، حتى "يزيين بالأحجار الكريمة البيضاء والخضراء".[٩٨] واقتصرت الموضة في البداية على أكثر أعضاء المجتمع الروماني ثراءً، لكنها سرعان ما امتدت إلى النساء من خلفيات أكثر اعتدالاً. وكان هناك أيضاً شعور بـ"اللباس المناسب"، يدفع النساء الرومانيات نحو اتباع هذه الموضة. يلاحظ بلني:

> الآن، حتى النساء اللائي يعانين من الفقر يرغبن في اللؤلؤ، ويقلن إن لؤلؤة عظيمة بمثابة الحارس الشخصي الذي يليق بامرأةٍ تظهر في الأماكن العامة.[٩٩]

يشير بلني إلى أن بعض النساء الرومانيات قد أنفقن المزيد من الأموال على المجوهرات واللؤلؤ أكثر من العديد من الكماليات المألوفة الأخرى مجتمعة.[١٠٠] وحاولت النساء الغنيات التفوق على بعضهن البعض في هذا العرض. يقول بلني مُعلِّقاً: "تبتهج السيدات عندنا لوجود لآلئ متدلية من أصابعهن، أو اثنين أو ثلاثة منها تتدلى من آذانهن".[١٠١] وعرفت هذه الأقراط المتعددة من اللؤلؤ باسم "الصنج المتدلي"، ويقول بلني إن النساء الرومانيات كن "يبتهجن بسرعة من خشخشة اللؤلؤ؛ لأنه يقرع بعضه بعضاً."[١٠٢] وكانت هذه الطريقة من التباهي تسبب أيضاً الشقاق في مجتمعات الكنيسة آنذاك. في العقد السادس الميلادي كتب الرسول بولس إلى تيموثاوس عن كنيسة أفسس في آسيا الصغرى. يقول بول ناصحاً:

> أريد أيضاً أن ترتدي النساء ملابس متواضعة، بحشمةٍ ولياقةٍ، وليس بشعر مضفَّرٍ، أو ذهب، أو لآلئ، أو ملابس باهظة الثمن، ولكن مع العمل الصالح، المناسب للنساء اللواتي يُعلن عبادة الله.[١٠٣]

ربط الكُتَّاب الرومان تكلفة الأحجار الكريمة بتراجع القيم "الأخلاقية" في مجتمعهم. في هجائه الشهير، قال بترونيوس على لسان شخصيته تريمالكيو:

> الهند تتخلى عن لؤلؤها، ماذا يعني ذلك بالنسبة لك؟ أن تستلقي زوجتك التي تزين رأسها وصدرها بغنائم البحر على أريكة شخص غريب وترفع ساقيها؟ وماذا يعني الزمرد الأخضر والحلية الشفافة بالنسبة لك؟ أو نار الياقوت؟[١٠٤]

وجدت الموضوعات التقليدية التي تربط الرفاهية بالانحدار الأخلاقي صدى جديداً عندما قيّم سينيكا موضة النساء:

> أرى اللؤلؤ - ليس حبات مصممة لكل أذن، ولكن في مجموعات. وقد تم تدريب آذانهن لحمل هذه الأحمال. وتم ضم الأقراط معاً في أزواج، وفوق كل زوج يتم تثبيت غيره. وحاولت أعمال النساء المتسمة بالحماقة سحق الرجال باثنتين أو ثلاث من الثروات معلَّقة في كل أذن! [١٠٥]

لكن المجوهرات قامت بتغيير الوضع القائم، وجعلت المرأة الرومانية تشعر بالجاذبية. ويعلّق أوفيد على ذلك بأن الرجال الرومان قد "فازت عليهم النساء باللباس"، حيث بدأ مظهرهن يهم أكثر من الفضائل التقليدية للنساء. وقال ساخراً إن الشخصية الأنثوية "أخفتها الأحجار الكريمة والذهب"، وأن "المرأة الحقيقية هي الأقل جزءاً من نفسها".[١٠٦] وانتقد بلني أيضاً الناس الذين يرتدون أحذية مطرزة باللؤلؤ لعرض المزيد من ثرائهم.[١٠٧] ومما له دلالة في هذا الشأن أن الإمبراطور تيبريوس وصف عملية تصدير الثروة الرومانية إلى الشرق البعيد بأنها كانت فقط "من أجل الجواهر".[١٠٨]

انتشرت هذه الموضة بشكلٍ واسعٍ، حيث تُبيِّنُ الآثار الحجرية الجنائزية من تدمر أن النساء السوريات الثريات كن يرتدين اللؤلؤ والأحجار الكريمة كجزءٍ من مجوهراتهن الدقيقة. كما تظهر صور للمجوهرات المصنوعة من اللؤلؤ والأحجار الكريمة في كثيرٍ من الأحيان في الصور المرسومة على النعوش المصرية من العصر الروماني.[١٠٩] وكان يتم ارتداء اللآلئ في القلائد المتعددة التي تراوحت بين الحلقات المشددة، والطويلة، أو المثبتة على الأقراط الثلاثية التي بها خيوط ملتوية من الذهب.[١١٠] ومن المؤكد أن الأرباح التي كان يحققها الحرفيون الرومان المشتغلون بها كانت هائلة.

ولقد ذكر بلني مثالاً من أفضل الأمثلة على العروض المفرطة في وصفه للوليا بولينا، قرينة الإمبراطور كاليجولا، حيث شهد بذخها عندما كان شاباً في روما، ويتذكر بلني ما يلي:

> لقد رأيت لوليا بولينا... ليس في احتفالٍ كبيرٍ، أو رسمي، ولكن في مأدبة خطوبة عادية. وكانت مغطاة بالزمرد واللؤلؤ المتداخل والساطع في جميع أنحاء رأسها

وشعرها وأذنيها ورقبتها وأصابعها. وكان يبلغ إجمالي هذا الحلي أكثر من ٤٠ مليون سيسترس.[١١١]

كانت لوليا تبرهن على قيمة مجوهراتها أمام المعجبين المهتمين من خلال الإيصالات، التي كانت تحتفظ بها، حيث كتب بلني: "هي بنفسها كانت على استعدادٍ في أي لحظة لتقديم دليلٍ وثائقي على هذا الشراء الذي تم بهذا الثمن الكبير".[١١٢]

وكانت العطور الشرقية والملابس والمجوهرات معاً قد أحدثت "نظرة" عصرية في المجتمع الروماني الثري. وقدم مارشال ملخصاً من الكلمات الآتية:

اسمحوا أن تطلب مدبرة منزلي رطلاً من العطور، أو الأحجار الكريمة، أو الجزع العقيقي الأخضر. بل ربما كانت ترغب في أجود أنواع الحرير من شارع توسكان.[١١٣]

وتخلت إحدى شخصيات سينيكا النسائية، وهي فيدرا عن "الموضة الجديدة":

أرسلْ بعيداً اللون القرمزي للصدف الصوري، و"شبكات" الحرير التي يجمعها السيريس من أشجارهم. دعونا... ألا يكون هناك قلادة على رقبتي، ولا لآلئ مثل الثلوج، ولا هدية من المحيط الهندي تثقل أذني، دعوا شعري يتحرك سائباً وغير معطر بالسنبل الهندي الآشوري.[١١٤]

لكن العديد من النساء الرومانيات اتبعن هذه الموضة وسرعان ما أصبح تأثيرها واسع الانتشار.

وصف راوي قصة *الحمار الذهبي* هاجسه من شعر المرأة، وذكر كيف يحبه أن يكون: "ممسوحاً بمستحضرات من الجزيرة العربية".[١١٥] وتظهر الصور الرومانية المرأة بشعرها المجعَّد والمموَّج منظوماً في الشعر، وذلك باستخدام الزيوت المعطرة.[١١٦] وأصبح الشعر المستعار شائعاً بين النساء الرومانيات وَوُجِدَت بقايا هذا الشعر في التوابيت المصرية.[١١٧] وتكشف *التعريفة السكندرية* أن هذا الشعر قد تم استيراده من

الهند، وربما تبرع بها "معبد الشعر"، الذي كان يتبرع إلى المعابد الهندوسية.[١١٨] عرض مارشال هدية هي دبوس شعر من الذهب مكتوب عليه بيت شعر "أدخلي الدبوس ليرفع شعرك الملتوي حتى لا تضر خصائل شعرك المبللة حريرك المشرق".[١١٩] كما وجدت في المجتمع الروماني موضة ارتداء الأحجار الكريمة في مشابك الشعر. ويصف الشاعر بروبيرتيوس شعر محبوبته أنه "كان مضموماً تحت تاج من الأحجار الكريمة الهندية".[١٢٠]

أصبحت المنتجات ذات الطابع الشرقي مرادفاً للجمال الأنثوي. ويشير أوفيد إلى التأثير المضاعف الذي نتج عن هذه الموضة، حيث يقول:

> إنكِ ترغبين في تعطير شعرك وتغيير تسريحتك. وتحبين أن تتوهج يديك بالأحجار الكريمة. وحول عنقك ترغبين ارتداء المجوهرات الشرقية ذات الأحجار الكبيرة بحيث لا تستطيع الأذن الواحدة أن تحمل زوجاً منها. هذا ليس ذوقاً سيئاً: عليك أن تكونين جذابة.[١٢١]

ولا بد من الاعتراف بأنَّ العناصر الغريبة والمكلفة من التجارة الشرقية أصبحت سمةً بارزةً ومنتشرةً في المجتمع الروماني الأنيق.

كان لدى الرومان الأثرياء أيضاً رغبة كبيرة في عناصر المشغولات المكلفة المصنوعة من المواد الشرقية الغريبة. تم تأثيث منازل وفيلات الأثرياء الرومان في المدن بالعناصر الزخرفية العصرية المصنوعة من الأخشاب الثمينة المطعمة بصدف السلاحف والعاج.[١٢٢] كما استخدمت أخشاب شرقية مثل الأبنوس في صناعة الأثاث، مثل الأسرة، والألواح الجانبية، وموائد الطعام والأبواب، وأصبحت هذه البنود الفاخرة مرادفة للذوق الرفيع.

يصف مارشال كيف كان المتسوقون في المنتدى الروماني يعشقون استعراض السلع المعروضة في مؤسسات تجارة التجزئة باهظة الثمن، على الرغم من أنَّ العديد

من هذه العناصر لم تكن في نطاق قدرتهم المادية. ويصف كيف تصرَّف "مامورا" كرجلٍ روماني مهذَّب، وهو يتفقد البضائع الشرقية المستوردة:

> بعد المشي الطويل داخل البازارات، حيث تعرض روما الذهبية بفخر غناها... كشف "مامورا" موائد مختلفة منها المربعة والمستديرة وبعدها طلب رؤية بعض الحلي المصنوعة من العاج، وهي معروضة على الرفوف العليا. ثم قام أربع مرات بقياس أريكة عشاء لستة ضيوف، مزينة بصدف السلاحف.[١٢٣]

عندما حاول فيرجيل تخيل الحياة في وضع مثالي ريفي، ذكر أن غياب المنتجات الشرقية مرادفاً للثروة في المناطق الحضرية. وكتب فرجيل ما يلي:

> لا توجد قوائم أبواب مُطعَّمة بصدف السلاحف، ولا أي ملابس من الديباج الذهبي، ولا برونز متذوق. ولا يوجد أصباغ خارجية تلطخ الأصواف البيضاء، ولا يوجد توابل غريبة مثل القرفة تفسد زيت الزيتون.[١٢٤]

كما استخدمت أيضاً شظايا من صدف السلاحف للأشياء الأصغر مثل الأمشاط، والفرشاة، والزينة الشخصية، ومنها الخواتم، والدبابيس.[١٢٥] وكتب جوفينال عن الرجال الرومان في الحمامات العامة، الذين كانوا يحملون أدوات، مثل قوارير الزيت المصنوعة من قرن وحيد القرن المصقول.[١٢٦]

وكان العاج شائعاً في الإمبراطورية الرومانية، واستخدمه الحرفيون على نطاقٍ واسعٍ للزينة.[١٢٧] وكانت الأنياب الواردة من رحلات التجارة الرومانية إلى الهند أكثر الأشياء قيمةً في *بردية موزيريس*.[١٢٨] وتحدث أوفيد حول "الهند" وهي تجمع العاج المنحوت ليسحروننا، ويتحدث مارشال عن الطاولات الليبية المتوازنة على الأنياب الهندية.[١٢٩] وذكر الشعراء الكلاسيكيون أيضاً أنه تم استخدام هذه المواد في صناعة الأرائك، وألواح القمار، وخزائن الأدوية، والأقفاص، ومواد الكتابة الفاخرة،

وحتى الأسنان الصناعية.[١٣٠] وكان من بين حطام سفينة بوتسينو، يد عاج منحوتة بدقةٍ من تمثال خشبي قديم.[١٣١]

وربما كانت بعض الحلي العاجي باهظة الثمن على الرفوف العالية في المحلات التجارية الرومانية مشغولات جُلِبَتْ من الهند، مثل التمثال العاجي الصغير من الهند، الذي عُثِرَ عليه في أطلال مدينة بومبي. والتمثال هو لامرأة منحوتة بدقةٍ، ربما آلهة، ومعها مساعدان صغيران بجانبها. وربما كان هذا مقبض مرآة، أو ساق كرسي ثلاثي صغير. وربما كان هذا أهم ما تحتفظ به بعض المربيات الرومانيات الثريات.[١٣٢]

كما تم استيراد العبيد الشرقيين إلى الإمبراطورية الرومانية بأعدادٍ كبيرة.[١٣٣] اعتقد الرومان الأثرياء أنه من التحضُّر أن يكون لديهم هؤلاء العبيد لاستقبال المدعوين في الحفلات باهظة الثمن.[١٣٤] وتذكر *التعريفة السكندرية* الخصي الهنود. ويتحدث مؤلف كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" عن العبيد الأفارقة الذين تم شراؤهم من الأسواق في إثيوبيا والصومال.[١٣٥] ويذكر هوراس، أحد العبيد، الذي سُمِّيَ على اسم أحد روافد نهر السند، وكتب عن "هيدابيس الأسود" الذي خرج حاملاً النبيذ الكايكوبي".[١٣٦] وكان هؤلاء العبيد الغريبون مكلفين مادياً. وأشار كل من مارشال وبلني إلى أن الخصيينِ يمكن بيعهما بأسعار تتجاوز ١٠٠٠٠٠ سيسترس.[١٣٧] في خطابٍ له أمام مجلس الشيوخ بشأن نفقات الكماليات الرومانية، عرّف تيبريوس العبيد الغريبين على أنهم سمة بارزة من سمات هذا النمط الاستهلاكي. وذكر أن الإمبراطور قد قال:

> أين يجب أن أبدأ محظوراتي وأحاول أن أعود إلى المعايير السابقة؟ هل أبدأ بالقصور الواسعة أم بجحافل العبيد؟... أم أبدأ بملابس الرجال (الحريرية) التي لا يمكن تمييزها عن ملابس النساء؟[١٣٨]

كما قامت النخبة الرومانية بتربية الحيوانات الشرقية كحيوانات أليفة للعرض والترفيه. وكان المفضل منها الببغاء الهندي الأخضر، الذي كان يتلقى تدريبه على الكلام بجملٍ بسيطة باللاتينية.[١٣٩] وكتب أوفيد تذكاراً عن ببغاء كان قد قدَّمه سابقاً إلى كورينا عشيقته، وكان متضايقاً بوضوحٍ، عندما سمع أنها دفنت الطائر الميت تحت شاهد حجري صغير. وتبدأ قصيدته بـ"مات الطائر الهندي المقلِّد"، ويستكمل "مات الطائر، هذا الصدى لصوت الإنسان، هذه الهدية النادرة جداً من الطيور، القادم من الحدود القصوى للعالم".[١٤٠]

كما جلبت مجموعة كبيرة من الحيوانات البرية من الشرق البعيد إلى الإمبراطورية الرومانية. وكثيراً ما كانت تحدث المعارك الحيوانية لتسلية الجمهور في الأراضي الرومانية، وكان يحرض وحيد القرن من الهند ضد الحيوانات الكبيرة الأخرى بما فيها الثيران.[١٤١] وتسرد *التعريفة السكندرية* مجموعة من القطط الكبيرة التي تخضع لرسوم الاستيراد بما في ذلك النمور والفهود. [١٤٢] وكتب مارشال قصيدة إلى دوميتيان للاحتفال بالألعاب الجماهيرية التي أمر بها الإمبراطور وتشمل النمور الهندية. حيث قال مارشال:

> لم يخف الصيادون الواقفون على ضفاف نهر الغانج... أبداً من رؤية هذا العدد الكبير من النمور كما تراهم الآن في روما.[١٤٣]

ويكشف بلني أيضاً عن المحار العملاق، الذي يصل طوله إلى متر، الذي تم جلبه من المحيط الهندي ليدهش الضيوف على مائدة العشاء الإيطالية.[١٤٤] وكانت تسمى تريداكنا *tridacna*؛ لأنها تتناول الطعام في ثلاث لدغات، أو أكثر. وتأتي الأدلة على هذه الواردات من بومبي، حيث الأصداف المبعثرة من هذه الرخويات الكبيرة تتناثر بكثرة في الحفريات الأثرية.[١٤٥]

بحلول نهاية عصر خوليوكلودين، كانت النخبة الرومانية تنفق مبالغ هائلة من المال على الكماليات باهظة الثمن. وحاول الإمبراطور "جالبا" استرداد بعض من الثروة الهائلة التي بددها نيرونن في الهدايا، لكنه وجد كمية باقية منها من ذات القيمة البسيطة. وكتب تاكيتوس ما يلي:

> بدد نيرون ٢٢٠٠ مليون سيسترس على الهدايا. وقد تم التصويت على وجوب استدعاء هؤلاء الأفراد، وأنه ينبغي إرجاع عُشر الهدايا التي أعطاها نيرون لهم. ولكن ما تبقى مما يفضله نيرونن بالكاد يكون العشر، لأنهم قد أضاعوا المال على التبذير نفسه، الذي كان قد استنفد ثرواتهم الخاصة. ولم يكن لدى أقلهم قيمة، وفساد أرض، أو استثمارات، ولكن فقط الجشع.[١٤٦]

وكانت المنافسة على الإنفاق علامة على هذا الوضع، وأصبح التقدم السياسي في روما يعتمد جزئياً على مظاهر الثراء، ومنها السلع الاستهلاكية للنخبة. عمل الإمبراطور فاسباسيانوس على التقليل من هذا الإنفاق المفرط من خلال معارضته المعروفة على نطاق واسع للترف، الذي "لا لزوم له". ومع ذلك استمرت الموضات باهظة الثمن، ولم تخفت التجارة الشرقية في عهد فلافيان.

تجار الشرق في الأسواق الرومانية

كان من بين إفرازات التجارة الشرقية، أن أصبح كثيرون من مناطق بعيدة من العالم القديم مقيمين في الإمبراطورية الرومانية. ويروي زينوفون الأفسسي قصة أمير هندي ثري زار الإسكندرية لمشاهدة المعالم السياحية والتجارية.[١٤٧] كما وصف ديو كريسوستوم المتفرجين الأجانب في أحد مسارح الإسكندرية:

> لا أرى بينكم فقط اليونانيين والإيطاليين والناس من البلدان المجاورة من سوريا وليبيا وكيليكيا، ولكن أيضاً الأثيوبيين والعرب القادمين من مناطق بعيدة، وحتى

الباختريين والسكيثيين والفرس وقليل من الهنود. كل هؤلاء الناس يشكلون الجمهور في مسرحكم، ويجلسون بجانبكم في كل مناسبة.[١٤٨]

وكانت مرافئ سفن التجار الأنباط ومستودعاتهم مزدهرة في بوتيولي وأوستيا في إيطاليا لتوزيع الواردات الشرقية.[١٤٩] ويدل نقش مكتوب باللاتينية والإغريقية على أن تجار تدمر كانوا يعملون أيضاً في روما، وأقاموا معبداً مخصصاً لإلههم بعل في المدينة.[١٥٠]

وجاء الهنود أيضاً إلى روما. ولقد اشتكى مارشال من فتاة رومانية اسمها كايليا كانت قد تجاهلت رغبته في معرفتها، في حين أنها قد أقامت العديد من العلاقات مع بعض الأجانب. وقلل مارشال من احتمالية عثور كايليا على شخصية غريبة وثرية تتمتع بجاذبية تفوق جاذبية الرجل الروماني. ويقول مارشال:

أنت مع حبيبك المصري، الذي أبحر لك من الإسكندرية. ثم مع واحد غيره هندي ذي بشرة داكنة من شرق المحيط الهندي... أنت فتاة رومانية. فلماذا لا تهتمي بمواطن روماني مقبول جداً بالنسبة لك؟[١٥١]

كان هناك رجال أعمال تدمريون يعملون في بريطانيا، وقد كانوا يتلقون شحنات البضائع الشرقية من زملائهم السوريين عبر طرق تجارة البحر الأبيض المتوسط. ووجد شاهد قبر بالقرب من سور هادريان رسم عليه مربية تدمرية الجذور ترتدي الأقمشة الجميلة وتفتح صندوقاً من المجوهرات. وكان القبر ملكاً لزوجة تاجر بريطاني ثري يُدعَى باراتيس الذي قام بحفر هذا الإهداء التالي باللاتينية والتدمرية:

إلى روح الفقيدة ريجينا، زوجة باراتيس التدمري، المولودة في كاتوفيلاني، والمتوفاة وهي في الثلاثين من عمرها.[١٥٢]

كان باراتيس يقوم بتوريد لافتات الحرير للحاميات القريبة التي تحرس الحدود الرومانية، وعثر على شاهد قبره في كوردبريدج القريبة.[١٥٣]

تمويل التجارة الشرقية

تكشف الأدلة الأثرية كيف طوَّرت عائلة تاجر إيطالي من بوتيولي على خليج نابولي اهتمامها بالتجارة الشرقية.[١٥٤] وفي عام ٤٨ قبل الميلاد، هزم قيصر الجنرال الروماني بومبي الكبير (العظيم) في معركة فارسالوس في اليونان، حيث هرب بومبي المهان أشعث الشعر على متن قارب صغير، وأنقذته سفينة شحن رومانية كانت متجهة إلى مصر بتوجيهات من تاجر قمح اسمه بيتيتشيوس.[١٥٥]

في العقود التالية، طوَّر بيتيتشيوس وأبناؤه اهتمامهم التجاري في مجال تجارة نبيذ البحر المتوسط، وبدأ تسليم دفعات من الجرار الإيطالية إلى شمال أفريقيا. ويسجل نقشٌ مرسومٌ على قطعة من جرة عثر عليها في قرطاج اسم بيتيتشيوس ويرجع تاريخها إلى حوالي٢٠ قبل الميلاد. وظهر اسم بيتيتشيوس مارسوس أيضاً محفوراً في وعاء نبيذ عُثِرَ عليه من حطام سفينة غارقة قبالة الساحل الإيطالي.[١٥٦]

وأصبح الجيل التالي من عائلة بيتيتشي مشتغلين بتصدير النبيذ إلى الشرق البعيد. وتسجل الكتابات الموجودة على الجدران على الطريق الصحراوي من كوبتوس إلى برنيكي أن بيتيتشيوس زار ملجأً صخرياً مقدساً لعبادة الإله اليوناني بان. وكان بان إله المساحات البرية والمفتوحة، ولكنه كان أيضاً أحد المقربين من باخوس، إله الخمر الذي قيل إنه قاد الوفد المرافق له إلى الهند. ووقع الشاب بيتيتشيوس اسمه بكل من الإغريقية واللاتينية في الملجأ لإظهار ولائه لهذا الإله.[١٥٧]

ويوجد مزيد من الأدلة على اهتمام أسرة بيتيتشي بالتجارة الشرقية في شكل نصب تذكاري جنائزي بالقرب من منزلهم الإيطالي في بوليا. وهناك لوحة من الحجر تصوِّر شخصاً صغيراً يرتدي سترة قصيرة يقود جملاً عربياً محمَّلاً بثلاث قوارير للنبيذ. وفي المقدمة خمسة رجال من العائلة يرتدون سترات التوجا الضيقة ويقفون بجوار

إحدى قريباتهم.[١٥٨] وأصبح هذا الجيل من العائلة ثرياً جداً جراء تزويد الأسواق الرومانية بالواردات الشرقية. ويسجل تمثال هرقل المصنوع من البرونز، الذي يعود تاريخه إلى العهد التالي اسم "آتيوس بيتيتشيوس مارسوس" مطعماً بالفضة.[١٥٩]

كانت الرحلات التجارية الكبيرة إلى الهند تكلف ما يزيد على المليون سيسترس.[١٦٠] لوضع هذا الرقم في سياقه الاقتصادي، كان الحد الأدنى من الملكية لعضو مجلس الشيوخ الروماني مليون سيسترس وهذا يمثّل قيمة عقار زراعي كبير.[١٦١] وهناك شواهد من أواخر عهد الإمبراطورية تدل على أن التجار الرومان من ذوي العلاقات الجيدة يمكنهم الحصول على قروض تبلغ قيمتها ما يعادل حوالي ٢٠٠٠٠٠ سيسترس.[١٦٢] وهذا يعني أن أربعة أو خمسة شركاء يعملون معاً يمكنهم جمع الأموال اللازمة لإجراء رحلة تجارية شرقية على نطاق واسع.

تؤكد العقود المدونة على أوراق البردي أن التجار الرومان شكلوا في كثيرٍ من الأحيان اتحادات صغيرة من أربعة أو خمسة أعضاء لتمويل رحلاتهم التجارية. ويسجل عقد قرض بطلمي اجتماع خمسة شركاء أعدوا لتمويل بعثة إلى "أراضي التوابل" في الصومال. وقاموا بتأمين هذا القرض عن طريق ترتيب سداد ديونهم للدائنين بالنقود التي اكتسبوها من بيع بضائع تجارتهم العائدة.[١٦٣] ويشير فيلوستراتوس أيضاً إلى قائد سفينة مصرية كان واحداً من أربعة مساهمين في حمولتها.[١٦٤] وربما كوَّن التجار اتحادات لتمويل الرحلات التجارية، ولكن بالنسبة لكثير من رجال الأعمال كانت هذه الشراكات وسيلة للحد من المخاطر. وكانت من الناحية المالية أكثر منطقيةً أن يستثمر الشخص في أسهم الربع على عددٍ من السفن التجارية، بدلاً من وضع كل رأسماله على "متن سفينة واحدة". وإذا كان في الرحلة العديد من الشركاء، فإنَّ المستثمر الواحد لن يعاني من فقدان كل ما يملك إذا دمرت السفينة.

في عصر أغسطس، كان هناك بالفعل عددٌ كبيرٌ من التجار السكندريين لديهم رأس المال لتمويل مشاريع مشتركة في الهند. ويقدِّر العلماء أن شحنة وزنها ٤٠٠ طن، من الحبوب المصرية قد ربحت ٢٠٠٠٠٠ سيسترس عند بيعها في أسواق روما.[١٦٥] وكانت روما تحتاج إلى ما يُعادل ١٧٥ صفقةً بهذا الحجم لاستقبال القمح المصري، الذي تحتاجه فقط لإطعام سكانها في المناطق الحضرية.[١٦٦] وبناءً على ذلك، كانت الأموال متاحة في الإسكندرية لتمويل العديد من المشاريع التجارية الشرقية.

قام إيدكسوس بتمويل رحلته التجارية الهندية من خلال الانخراط في تجارة البحر الأبيض المتوسط العادية وجمع الأرباح. وربما حذا حذوه التجار في العصر الروماني، يقول سترابون:

> وضع إيدكسوس جميع ممتلكاته على متن سفينة واحدة وانطلق إلى البحر. في البداية رسا في ديكايارکيا ثم في ماسيليا ثم في نقاط متتالية على طول الساحل حتى أتى قَادِس. وفي كل مكان أعلن مخططه وكوَّن أموالاً من تجارة العبور. بنى سفينة كبيرة وشيَّد أيضاً زورقين مثل تلك التي كان يستخدمها القراصنة. ووضع العازفات والأطباء والحرفيين الآخرين على متن السفينة، وأخيراً رفع الشراع في عرض البحر في طريقه إلى الهند.[١٦٧]

كان بإمكان التجار الذين لم يكن لديهم عمل كبير في منطقة البحر الأبيض المتوسط المشاركة في التجارة الشرقية من خلال تأجير كمية صغيرة من حمولة البضائع على سفينة الشحن الرومانية في البحر الأحمر.[١٦٨] ويمكنهم السفر على متن السفينة إلى الأسواق في الشرق البعيد، وشغل مساحة البضائع المستأجرة لأي سلع يتوقع أن تحقق أرباحاً مرة أخرى في الإمبراطورية. وربما سمحت هذه الممارسة التجارية للعشرات من التجار أصحاب الموارد المحدودة بالمشاركة في البعثات التجارية إلى الشرق البعيد.[١٦٩]

كانت أكبر نفقة في الرحلات التجارية الشرقية هي ٢٥ في المائة ضريبة الاستيراد التي فرضتها الحكومة الرومانية على البضائع التي تدخل مصر عن طريق موانئ البحر الأحمر. كانت هذه الضريبة تسمى وضريبة الربع *tetarte* (أي الربع). كما تم فرض ضريبة الربع هذه على السلع التي تدخل إلى المملكة النبطية. وسجلت *بردية موزيريس* أن قيمة شحنة شرقية عائدة حوالي ٩ ملايين سيسترس، ولكن كان أكثر من مليوني سيسترس من الضرائب ملكاً للحكومة الرومانية.[١٧٠] ويعتقد بعض العلماء أن الحكومة الرومانية استولت ببساطة على ٢٥ ٪ من واردات الشرق عيناً بدلاً من طلب ما يُعادل قيمتها نقداً. ويمكن بعد ذلك أن تُباع البضائع في الأسواق الرومانية من قبل عملاء الإمبراطورية، أو إعادتها إلى التجار عندما لا يستطيعون تحمل نفقات إعادة شراء السلع مع أرباحها الأخرى.[١٧١] وبدلاً من ذلك، كان يمكن أن يدفع التجار الرومان ضريبة الاستيراد للحكومة نقداً من خلال الحصول على قروض من الممولين بمجرد وصولهم بسلام إلى موانئ البحر الأحمر. ويمكن تقديم هذه الاتفاقية المالية عن طريق استخدام السلع الشرقية كضمانٍ كما هو موضح في *بردية موزيريس*.

بعد تحصيل *ضريبة الربع*، بلغت قيمة البضائع الشرقية الموثقة في *بردية موزيريس* حوالي ٧ ملايين سيسترس.[١٧٢] إذا كانت هذه السفينة يملكها أربعة أو خمسة مساهمين، فيمكن أن يحصل كل مستثمر على ما يزيد على مليون سيسترس من نصيبهم من البضائع. وبالتالي يكون لهم رأس المال الكافي لتمويل رحلات تجارية منفصلة إلى الهند، شريطة أن يكونوا مستعدين لقبول المخاطر المالية بأكملها. ويمكنهم أيضاً أن يقرضوا التجار الذين هم في حاجة لرأس المال لبدء لتمويل مشاريعهم التجارية الخاصة بهم في الشرق، أو عرض قروض على التجار العائدين الذين يريدون دفع *ضريبة الربع* نقداً. ويمكن أن يقوم التجار الناجحون بتوسيع مصالحهم التجارية

الشرقية عن طريق استئجار أو شراء مزيدٍ من السفن التجارية وتوظيف عوامل إضافية لإدارة أنشطتهم التجارية. وكان رجل الأعمال الروماني فاروس يمتلك عدداً من سفن الشحن العاملة من برنيكي التي كان يخزن فيها السلع الخاصة به.[١٧٣] وكانت إيزيدورا وأوليمبياس، وهما من سيدات الأعمال الرومانيات تمتلكانِ "أسطولاً" من السفن التجارية، وكانتا تقدمانِ الدعم المالي، وكذلك كانتا مديرتينِ في هذه التجارة.[١٧٤]

في عهد خوليو كلودين، بدأ نوعٌ جديدٌ من مشاريع النخبة في الظهور في المجتمع الروماني، فلم يكن لدى العصاميين من أصحاب الملايين هيبة أرستقراطية، لكنهم اكتسبوا شهرة كبيرة من ثرواتهم التجارية الهائلة. وتمكَّنت النخبة من السيطرة على الأعمال الجديدة، وتكوين ثروات هائلة تزعج الطبقة الأرستقراطية الرومانية، التي تستمد معظم ثرواتها تقليدياً من العقارات.[١٧٥] وابتكر بترونيوس شخصية وهمية تُدعَى تريمالكيو أبدت موقفاً من هذه المشاريع الجديدة. وكان تريمالكيو ذاتي الدعاية، ولديه ثقة كبيرة، لكنه كان أيضاً مغامراً كبيراً. وكان الرجال الذين صنَّفهم تريمالكيو في كثيرٍ من الأحيان يأتون من خلفيات غير مميزة، وبالتالي يفتقرون إلى الآداب الاجتماعية التي تحدد الأرستقراطية التقليدية. ويقول تريمالكيو ما يلي:

> حصلت على ثروة عضوٍ في مجلس الشيوخ، ولكن لا أحد يحصل أبداً على ما يكفيه، كنت أرغب في الخوض في الأعمال التجارية، لذلك قمتُ ببناء خمس سفن وقمت بتحميلها بالنبيذ – كان ذلك بمثابة الذهب في ذلك الوقت – لذلك أرسلتها إلى روما. ولقد تحطمت كل السفن – هذه هي الحقيقة! في يوم واحدٍ ابتلع نبتون ٣٠ مليون سيسترس. لكن هل تعتقد أنني قد توقفت؟ – لا، لم أفعل.[١٧٦]

يوضح لنا تريمالكيو كيف جاءت زوجته لمساعدته:

> أقسم أنَّ هذه الخسارة زادت من تصميمي، وكأنَّ شيئاً لم يكن. لقد بنيت زوارق أكثر وأكبر وأفضل وأكثر حظاً. لذلك لم يستطعْ أحد أن يقول لي إنني لستُ رجلاً شجاعاً. كما تعلمون، كلما كانت السفينة أكبر، زادت الثقة. وقمت بتحميلها مرة

> أخرى بالنبيذ ولحم الخنزير المقدد والعطور والفاصوليا والعبيد. وعند هذه النقطة فعلت فورتوناتا الشيء المناسب، وباعت كل حليها وجميع ملابسها، ووضعت ١٠٠٠٠ قطعة من الذهب في يدي (مليون سيسترس). وكان هذا أقل مبلغ كنت في حاجة إليه حتى أرى ثروتي تزداد من جديد.[١٧٧]

على الرغم من أن المقصود من هذا هو الهجاء، إلا أن رجال الأعمال المشاركين في تمويل المشاريع التجارية الكبيرة كانوا في حاجةٍ إلى الهند لتوجيه رأس المال على المقياس الذي حدده بترونيوس. وسرعان ما اكتشف رجال الأعمال الذين قدموا من المحافظات الصغيرة أن أرباحهم التجارية يمكن أن تتجاوز العائدات في أوطانهم التي تدفع للدولة الرومانية. يكشف بترونيوس أيضاً عن الهدف النهائي لهذه الرحلات الجديدة. بعد النجاح في الأعمال التجارية، اختار الكثيرون استثمار رؤوس أموالهم في العقارات، وبدأو تقديم قروض مالية إلى أقل رجال الأعمال. يقول تريمالكيو ما يلي:

> في رحلة واحدة ربحت ١٠٠٠٠٠٠٠ سيسترس. وعلى الفور اشتريت كل عقارات معلمي القديمة. بنيت منزلاً واستثمرت في العبيد وفي الشحن. ونما كل ما لمسته مثل قرص العسل، وبمجرد أن حققت أموالاً أكثر من جميع العائدات التي جمعتها من بلدي تخليت عن اللعبة! وتقاعدت عن العمل، وبدأت أُقدِّم قروضاً إلى الرجال المحررين.[١٧٨]

فمن المرجح أنَّ كثيراً من رجال الأعمال الناجحين المنخرطين في التجارة الشرقية قد طوَّروا طموحات مماثلة.

وكان للتجار الشرقيين الناجحين وكلاء أعمال واتصالات تجارية تعمل لمصالحهم في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط. ولعل هؤلاء الممثلين والوكلاء وفَّروا لهم السلع التصديرية المناسبة. على سبيل المثال، كان لا بد من سحب الأنواع المفضلة من عملة الإمبراطورية من التداول وجمعها بكميات كبيرة لتصديرها إلى الهند والجزيرة العربية. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك النبيذ الإيطالي الرخيص الذي يحصل

عليه من مصادره ليتم إرساله إلى موانئ البحر الأحمر. هذه الاتصالات التجارية كانت تُستخدم لتوزيع الواردات الشرقية عبر أسواق منطقة البحر الأبيض المتوسط الرومانية.

كشفت أنشطة عائلة تجارية إيطالية تُدعَى "أني" عن نوع من شبكات الأعمال التجارية العاملة في التجارة الشرقية. نظَّم أنيوس بلوكاموس الرحلات التجارية الشرقية، لكنه اشترى أيضاً عقوداً لجمع الضرائب للحكومة الرومانية. وقد ترك أحد وكلائه المحررين نقشاً كتب باللغة اللاتينية في مغارة طبيعية صغيرة تقع على الطريق بين كوبتوس وبرنيكي في عام ٦ قبل الميلاد.[١٧٩] وبعد عام ٥٠م مباشرة، انحرف رجل آخر من أولئك الذين قام بإعتاقهم، الذي كان مُكلفاً بجمع الضرائب من منطقة البحر الأحمر عن مساره البحري جنوباً باتجاه شبه الجزيرة العربية، ووصل إلى سريلانكا.[١٨٠] وكان لعائلة أني مزيد من الوكلاء التجاريين العاملين في بوتيولي، الذين تمكنوا من توزيع وبيع السلع الشرقية التي تصل إلى إيطاليا بالتجزئة. وقد حصل هؤلاء الوكلاء أيضاً على البضائع الرومانية المعدة للتصدير إلى الشرق البعيد. وعثر على نقش في الميناء يذكر أحد الأشخاص المحررين، وهو أنيوس إيروس، الذي كان شريكاً تجارياً كبيراً. وتُسجِّلُ الكتابات الأخرى في وقتٍ مبكر أنيوس مكسيموس، الذي شغل منصب قاضٍ في بوتيولي وعضواً آخر من العائلة اسمه أنيوس سيلوقس، الذي كان يدير العمل في الميناء في عام ٤٠م.[١٨١]

ماركوس يوليوس الكسندر هو الشخصية الأكثر إثارةً للاهتمام والمشار إليها في المصادر المكتوبة للتجارة الشرقية. كان ماركوس يهودياً غنياً ومقيماً في الإسكندرية، ويحمل جنسية الإمبراطورية الرومانية، وكان على علاقة جيدة بالنخبة الثقافية والسياسية في المدينة.[١٨٢] وكان ابن شقيق فيلسوف يوناني يهودي بارز اسمه فيلو، وكان والده تيبريوس يوليوس الكسندر يشغل منصب الألابارخ، وهو المسؤول عن

الضرائب الجمركية الرومانية في الصحراء الشرقية.[١٨٣] حصل تيبريوس الكسندر على ثروةٍ كبيرةٍ من هذا المنصب المربح، وفي عام ٣٦م أعطى هيرودس أغريباس ملك يهودا ٢٠٠,٠٠٠ دراخمة لمساعدته في المشكلات المالية.[١٨٤] وقدَّم أيضاً هديةً غالية الثمن هي أطباق من الذهب لتجميل تسعة أبواب في المعبد اليهودي في القدس.[١٨٥] طور تيبريوس الكسندر اتصالاته الوثيقة مع العائلة الإمبراطورية الرومانية وعهد إليه بالشؤون المالية لأنتونيا، والدة الإمبراطور كلوديوس فيما بعد.[١٨٦]

استعمل تيبريوس الكسندر وضعه ومنصبه وأمواله من أجل إيجاد عمل لابنه ماركوس كصاحب عمل رئيسي في التجارة الشرقية.[١٨٧] ويكشف *أرشيف نيكانور* أنه بين عامي ٣٧ و٤٤م كان ماركوس يدير نشاطاً تجارياً واسع النطاق في مصر يتطلب وكلاء تجاريين في كوبتوس والميناءين الرئيسيين في البحر الأحمر.[١٨٨] وبالتالي أصبح ماركوس الكسندر ثرياً للغاية، وتزوج من الأميرة اليهودية برنيكي وهي ابنة الملك هيرودس أغريباس.[١٨٩] ولقد توفي ماركوس على الأرجح في عام ٤٤م، وهذا هو المرجع الأخير لأنشطته في *أرشيف نيكانور*، وتزوجت الأميرة برنيكي مرة أخرى في العام نفسه.[١٩٠]

وكان ماركوس الأخ الأكبر الذي يحمل اسم والده تيبريوس يوليوس الكسندر. وفي عام ٤٢م تولى تيبريوس الكسندر الابن منصباً في مصر في وقت كان فيه شقيقه ماركوس يدير تجارته في كوبتوس. وبعد وفاة شقيقه، تم تعيين تيبريوس الكسندر وكيلاً تجارياً ليهودا من حوالي ٤٦م حتى ٤٨م، ثم خدم في وقت لاحق بوصفه واحداً من القادة العسكريين أثناء الصراع الروماني مع البارثيين في عام ٦٣م. أخيراً، بلغ تيبريوس منصباً رفيعاً في مصر، حيث شغل منصب الحاكم في الأشهر التي سبقت الحرب الأهلية في عام ٦٩م، قام تيبريوس الكسندر بدعم فيسباسيان في هذه الحرب

الأهلية، وكان له دور أساسي في انتصار فلافيان. وإذا نظرنا إلى النفوذ السياسي، نجد أنه لم يكن هناك مَنْ تجاوز نفوذه سوى تيطس ابن الإمبراطور.[١٩١]

قيمة التجارة الشرقية

خدم بلني الأكبر في المجلس الاستشاري للإمبراطور فاسباسيانوس وربما كان هذه الاتصالات هي التي وفرت له الأرقام والمعلومات عن حجم التجارة الشرقية. يشير بلني إلى قيمة صادرات السبائك الرومانية إلى الشرق البعيد عندما قال:

> بأبسط العمليات الحسابية، تأخذ الهند، والسيريس، وشبه الجزيرة العربية ١٠٠٠٠٠٠٠ سيسترس من إمبراطوريتنا كل عام – تكلفنا كثيراً الكماليات والنساء.[١٩٢]

ولقد تم إنفاق ما يقرب من نصف هذا الرقم على صادرات التجارة الرومانية مع الجزيرة العربية، في حين تم تصدير الباقي عبر البحر الأحمر إلى الهند، الذي بدوره وجه الثروة الرومانية إلى أرض "السيريس"، أو "شعب الحرير".[١٩٣] عرض بلني لمعلومات حول هذه التجارة عندما ناقش تطور طرق التجارة البحرية بين مصر والهند. يقول بلني:

> هذه مسألة مهمة؛ لأن الهند تستنزف أكثر من ٥٠ مليون سيسترس سنوياً من إمبراطوريتنا، وتعيد البضائع التي تُباع بيننا بأكثر من قيمتها بـ١٠٠ مرة.[١٩٤]

وربما تدل قطع النقود الرومانية التي وجدت على ساحل مالابار في جنوب غرب الهند على قيمة شحنات الذهب المحمولة على متن السفن التجارية الرومانية. لقد تم العثور على مجموعة العملات مدفونة في الكثبان الرملية في مدينة الكوتايام داخل وعاء من البرونز. ويشير العلماء إلى أن هذه العملات قد خُبئت من قبل الرومان الغرقى وهم في طريقهم إلى موانئ التاميل.[١٩٥] ويتألف هذا الاكتشاف من حوالي ٨٠٠٠ قطعة من الذهب، التي كانت قيمتها النقدية نحو ٨٠٠٠٠٠ سيسترس. ويشير

سترابون إلى أن ما لا يقل عن ١٢٠ سفينة رومانية كانت تبحر من مصر إلى الهند كل عام.[١٩٦] ويمكن لنصف هذا العدد، فقط ٦٠ سفينة من التي تحمل شحنات من الذهب مقاربة لحجم ما عُثِرَ عليه من ذهب في كوتايام، تصدير ٥٠٠٠٠٠٠٠ سيسترس سنوياً من الإمبراطورية الرومانية.

تشير تواريخ الهان إلى أن التجار الرومان ربحوا عشرة أضعاف رؤوس أموالهم جراء التعامل التجاري مع الهند. يقول هوى هانشو ما يلي:

> يتاجر الرومان مع الآنخي (بارثيا)، وتيانتشو (شمال غرب الهند) عن طريق البحر. والربح العائد من هذه التجارة هو ١٠ الى ١.[١٩٧]

تؤكد الأدلة التاريخية لتجارة التوابل في القرون الوسطى أن فارق الزيادة في السعر بين الأسواق الهندية والبحرمتوسطية وصلت إلى هذا المستوى في اقتصادات ما قبل العصر الحديث. في العام ١٤٠٩م، كان الفلفل الذي يتم شراؤه في كوتشين في جنوب الهند يُباع في القاهرة من قبل السلاطين المصريين بأكثر من قيمته بتسع مرات عن سعره الهندي.[١٩٨] تتوقع السفينة الرومانية التي تصدر ٨٠٠٠٠٠ سيسترس من سبائك الذهب إلى الهند الحصول على البضائع الهندية التي تبلغ قيمتها أكثر من ٨ ملايين سيسترس في أسواق البحر الأبيض المتوسط. وتتألف الصادرات الرومانية إلى بلاد التاميل من "كمية كبيرة من المال بشكل رئيسي"، ولكنها تشمل أيضاً نبيذ البحر الأبيض المتوسط والمعادن الأساسية. وازدادت قيمة هذه البضائع العائدة إلى نحو ٩ ملايين سيسترس.[١٩٩]

وتسجل بردية موزيريس أن سفينة رومانية تدعى هيرمابوللون قد جلبت نحو ٩ ملايين سيسترس كقيمة سلع شرقية عائدة من بعثة تجارية إلى جنوب الهند. وهذا يشير إلى أن الأسطول التجاري بأكمله، الذي يتألف مما لا يقل عن ١٢٠ سفينة رومانية، أعادت البضائع الشرقية وتبلغ قيمتها نحو ١٠٨٠ مليون سيسترس سنوياً. وعلى هذا،

فإن إجمالي قيمة الصادرات الرومانية من السبائك والسلع التجارية إلى الهند كانت نحو ١٠٨ ملايين سيسترس كل عام.

ويقدِّر الأكاديميون أنه في القرن الأول الميلادي بلغت ميزانية الإمبراطورية الرومانية ٨٠٠ مليون سيسترس سنوياً.[٢٠٠] كما يرى هؤلاء العلماء أيضاً أن القيمة الإجمالية للتجارة التي قامت بين روما والمقاطعات قد بلغت قيمتها حوالي ١٠٠٠ مليون سيسترس سنوياً.[٢٠١] وتشير الأدلة إلى أن التجارة الشرقية كانت تمثل ظاهرة مهمة في الاقتصاد الروماني.

التصنيع والزيادات في الأسعار

كانت قيمة واردات الشرق تُقدَّر بأكثر من ١٠٨٠ مليون سيسترس حين وصولها إلى مصر. ومع ذلك، يمكن إعادة معالجة العديد من هذه السلع في الإسكندرية لزيادة أسعارها في السوق الروماني. وتبلغ هذه الأنشطة أكثر من ثلاثة أضعاف قيمة مبيعات السلع الشرقية. وعندما تصل الواردات المجمعة أخيراً إلى أسواق التجزئة، تكون قيمتها عدة مليارات من السيسترس.

قامت ورش العمل الكبيرة في الإسكندرية بفرز ومعالجة البخور المستورد والموجه لأسواق التجزئة الرومانية. استغرب بلني عندما سمع عن الإجراءات الأمنية المشددة التي كان يعمل بها في هذه المصانع، حيث كان العمال يرتدون ملابس واقية لضمان عدم تلوث البخور، وكان يتم وضع مئزر على ملابس العمال حتى يمنع الموظفين من إخفاء هذا المنتج القيم الذي قد يتم بهدف سرقته. كما كان هناك تفتيش دوري يتم كإجراء إضافي لمنع السرقة. كتب بلني في هذا الصدد ما يلي:

> بحق هرقل! في الإسكندرية حيث تتم معالجة البخور للبيع لا يمكن أبداً حراسة ورش العمل بعناية كافية، حيث كان يتم وضع ختم على مآزر العمال، وكانوا يضعون

قناعاً وشبكة وثيقة للغاية على رؤوسهم، ويتم تجريد هؤلاء الناس من ملابسهم قبل السماح لهم بمغادرة أعمالهم.[٢٠٢]

كانت ورش العمل في الإسكندرية أيضاً تعيد نسج الحرير الصيني الكثيف في نسيج روماني خفيف وشفاف. ويتصور لوسيان كيف سيبدو هذا النسيج على كليوباترا:

يمكن رؤية ثدياها البيضاوان بروعةٍ من خلال النسيج الصيدي، الذي يتم إنتاجه كنسيجٍ مشدود ومزخرف بمهارة السيريس، ولكن إبرة عامل النيل فصلت وخففت الاعوجاج بواسطة شد الشبكة.[٢٠٣]

ويصف بلني أيضاً هذه الممارسة قائلاً:

بالنسبة لمشغولات الإناث كان السيريس يعطون مهمة مزدوجة تتمثل في حل الخيوط ونسجها من جديد. كم عظيم هو العمل، وبعيدة هي المناطق التي يتم استغلالها للتزويد بالثياب التي تعرض السيدات الرومانيات من خلالها أجسادهن في العرض العام.[٢٠٤]

كان الصينيون يدركون أيضاً أن بضائعهم تتم معالجتها في مراكز التصنيع الرومانية لتتناسب مع أزياء البحر الأبيض المتوسط. يقول فايلو:

ألوان الأقمشة الرومانية هي أكثر إشراقاً من أي شيء صُنِعَ في بلدان المحيط الهندي، فهي تحقق ربحاً دائماً عن طريق الحصول على الحرير السميك من الصين، الذي يقسمونه من أجل عمل أنماط أجنبية من أقمشة الحرير المزخرفة.[٢٠٥]

كانت صناعة النسيج مربحةً للغاية، وكنتيجةٍ لذلك ارتفعت الكثير من أسعار المواد المستوردة. وعندما ادعى بلني أن بعض السلع الشرقية الواردة إلى الهند قد تم بيعها بين الرومان بسعر يفوق "مائة مرة" سعر التكلفة، فإنه يشير على الأرجح إلى هذه الأقمشة الغالية المعدلة.[٢٠٦] لقد جلبت التجارة مع الهند عشرة أضعاف العائدات المالية. كما أن إعادة معالجة بعض الواردات كان يرفع قيمتها عشرة أضعاف مرة أخرى. وسجل

دقلديانوس في كتابه *مرسوم الأسعار* Price Edict أن قيمة رطل واحد من الحرير الناعم المصبوغ باللون البنفسجي كانت أكثر بـ١٢ ضعفاً من تكلفة الحرير الأبيض.[٢٠٧]

ولقد شهد الصينيون أيضاً زيادة الأسعار التي ذكرها بلني، حيث أشار مسؤول في إمبراطورية الهان أن هناك زيادةً هائلةً في قيمة السلع الأجنبية يتمثل في الفرق بين تكلفتها في المناطق البعيدة وسعرها في أسواق التجزئة الصينية. يقول الرجل ما يلي:

> يتم إنتاج اللؤلؤ والعاج في كوي لين. وهذه الأماكن تبعد بأكثر من عشرة آلاف لي عن صين الهان. ولو حسبنا الأيدي العاملة في الزراعة وصناعة الحرير والتكاليف العينية والمادية، سوف نجد أن سلعة واحدة من الواردات الأجنبية يفوق سعرها مائة مرة قيمتها الفعلية.[٢٠٨]

كما عرف الصينيون أيضاً إنتاج العطور في الغرب البعيد. ومن هنا فقد وصفوا كيف كان الرومان يقومون بصناعة المركبات العطرية من خلال غلي بعض المواد مع بعضها البعض.[٢٠٩]

كانت صناعة العطور الرومانية من الأعمال الرائجة التي يمكن أن تؤدي إلى زيادة قيمتها بمقدار ثلاثة إلى أربعة أضعاف بين تكلفة الواردات الخام وسعر البيع بعد التصنيع. ويقدم مؤلف كتاب *"دليل الطواف حول البحر الأرتيري"* مثالاً على ذلك البلسم الذي كان مكلفاً وينتج في الإمبراطورية الرومانية تحت احتكار الحكومة. كان البلسم يزرع في يهودا، وكان بلني مهتماً بسماع بعض القصص عن كيفية هجوم المتمردين اليهود على حدائق البلسم، وكيف كانت القوات الرومانية تخوض صراعات دموية قد تودي بحياتهم في سبيل حماية هذه الشجيرات. وكان السبب وراء هذا الاهتمام الروماني ما ينتجه البلسم من عائدات مستدامة ذات قيمة عالية بالنسبة للدولة الرومانية. كانت السلطات المالية الرومانية تبيع القدح من البلسم مقابل

٣٠٠ ديناري، ولكن أصحاب محلات العطور الذين قاموا بمعالجة المنتجات باعوها مقابل ١٠٠٠ ديناري.[٢١٠]

وربما حققت عبوات الانجنتاري *ungentarii* عائدات تفوق تلك الناتجة من معالجة الواردات الهندية مثل السنبل الهندي. وتوقع العاملون في العطور الذين كانوا يعملون في المواد الطبيعية تحقيق ٦ في المائة من الزيت النقي من منتجاتهم. ثم زودوا هذا المنتج بـ٧٥ في المائة من الزيوت الأساسية والمواد الناقلة.[٢١١] ويذكر بلني أن الرطل من ورق السنبل الهندي كان يُباع بما يتراوح بين ٤٠–٧٥ ديناري. وهذا من شأنه أن يشير إلى ارتفاع أسعار العطور المصنوعة من السنبل الهندي بين ١٦٠ و٣٠٠ ديناري. وهذا ما يؤكده *العهد الجديد* الذي يعطي ٣٠٠ ديناري لعطور السنبل الهندي الصافي.[٢١٢]

وحتى السلع الشرقية غير المعالجة كانت تخضع لارتفاع الأسعار بين أسواق الإسكندرية وروما، ففي القرن الثاني عشر، باع تجار من مدينة البندقية التوابل في إيطاليا بسعر يبلغ ٢٧ ضعفاً من قيمتها في الهند.[٢١٣] ومن المؤكد أن تكون الـ ١٠٨ ملايين سيسترس من البضائع الرومانية المصدَّرة إلى الهند كل عام قد خلقت تجارة تجزئة في البحر الأبيض المتوسط تجاوزت ٣ بلايين سيسترس سنوياً، كما كان هناك أيضا تجارة رومانية مع شرق أفريقيا، والجزيرة العربية، وبلاد فارس، إذا أردنا وضع تصوُّرٍ عامٍّ للتجارة الشرقية.

إيرادات الجمارك من التجارة الشرقية

قام التجار الرومان بدفع ضريبة جمركية لجلب البضائع الشرقية إلى مصر. ثم دفعوا بعد ذلك ضريبة إضافية لتصدير هذه السلع نفسها من الإسكندرية إلى مزيدٍ من أراضي البحر الأبيض المتوسط. وكانت السلع الرومانية التي يجري تصديرها إلى الشرق البعيد أيضاً تخضع لهذه "الرسوم المزدوجة"، حيث تخضع سلع البحر الأبيض المتوسط

للضريبة عند الدخول إلى الإسكندرية ومن ثم تخضع للضريبة مرة أخرى في كوبتوس قبل تصديرها إلى الشرق البعيد. يقول سترابون في هذا الصدد:

> في هذا الوقت الحالي يتم إرسال أساطيل كبيرة حتى الهند والحدود القصوى من أفريقيا. ويتم جلب البضائع الأكثر قيمة إلى مصر ومن هناك يتم إرسالها مرة أخرى لجميع المناطق الأخرى. ونتيجة لذلك، يتم جمع رسوم مزدوجة على كل من الواردات والصادرات. وفي ظل هذا النظام الاقتصادي، تخضع السلع التي لها قيمة عالية لضرائب باهظة.[٢١٤]

لقد تم تحديد قيمة الضرائب الجمركية الرومانية على الحدود الشرقية بالربع،[٢١٥] حيث بلغت قيمة الصادرات الرومانية إلى الهند أكثر من ١٠٨ ملايين سيسترس سنوياً. ومن هذا المنطلق تم ضخ عوائد سنوية تزيد على ٢٧ مليون سيسترس للحكومة الرومانية. وبالمثل كانت الواردات الشرقية العائدة التي تبلغ قيمتها أكثر من ١٠٨٠ مليون سيسترس تدر ٢٧٠ مليون سيسترس للدولة الرومانية. وإجمالاً، فإن الضرائب المفروضة على واردات الحدود الشرقية لمصر، قد وفَّرت أكثر من ٣٠٠ مليون سيسترس سنوياً لروما.

كانت البضائع الشرقية المصدَّرة من الإسكندرية إلى البحر الأبيض المتوسط، التي تخضع للضرائب الجمركية الإضافية، تُدعَى *بورتوريا* Portoria، التي كانت عموماً منخفضة نسبياً، حيث تساوي حوالي ٤٠/١ من قيمتها. ومن المؤكد أن هذه الضريبة أضافت عشرات الملايين إلى العائدات الرومانية التي وردت عن طريق مصر. وعندما كانت سفن البحر الأبيض المتوسط تغادر الإسكندرية وتصل إلى وجهتها الإقليمية، كان عليها أن تدفع ضرائب *البورتوريا* الإضافية لسلطات الموانئ المختلفة التي تمر بها. وهذا بدوره قاد إلى إضافة الملايين من السيسترس إلى الخزانة الرومانية.[٢١٦]

obeikandl.com

الإيرادات الرومانية

كانت العائدات المادية الواردة من فرض الضرائب على التجارة الشرقية في غاية الأهمية، فالاستعمار الروماني لم ينجح في تحقيق أرباح كبيرة في معظم المقاطعات. الإمبراطورية الرومانية لم تحقق أرباحاً كبيرةً في معظم المقاطعات. وكان الجانب العسكري للإمبراطورية الرومانية يمثل تجارة مربحةً لرعاياها، سواء من مواطنيها الذين خدموا في الجيش أو الطبقة الأرستقراطية التي حققت ثروات كبيرة في الخارج. وكان الاحتلال مربحاً؛ لأنه كان يجلب الثروة إلى الاقتصاد الروماني من خلال غنائم الحرب، وإيجاد فرص تجارية جديدة. ومع ذلك، بمجرد ضم أرض جديد للإمبراطورية الرومانية، تصبح الإمبراطورية مسؤولة عن إدارة هذه الأراضي الجديدة والدفاع عنها. وكان هذا الإجراء مكلفاً والعائد من الإيرادات الإقليمية لم يكن في الغالب فعَّالاً من حيث التكلفة. وكانت التكاليف الإقليمية تميل لاستهلاك معظم إيرادات المحافظة، وكان ما تتم إحالته إلى روما كمية صغيرة فقط من فائض الثروة. وابتداءً من عصر أغسطس، بدأت الإمبراطورية الرومانية أيضاً في ضم المناطق الشمالية الكبيرة التي كانت تستهلك عائدات أكبر بكثيرٍ مما تنتج. وكان غالباً لدى الأباطرة الرومان سبب سياسي، أو إستراتيجي لإخضاع هذه المناطق الجديدة، مما سيبرر المصروفات المالية المترتبة على عمليات الاحتلال.

في العهد الجمهوري، كانت آسيا الصغرى هي الأراضي الرومانية الوحيدة التي تنتج أرباحاً مالية كبيرة للحكومة المركزية. يقول شيشرون في ذلك ما يلي:

> عائدات المحافظات الأخرى قليلة، ولا تكاد تكفي لمصاريف حمايتها. لكن آسيا الصغرى كانت غنيةً جداً ومثمرةً جداً، وذلك لخصوبة تربتها، وثمارها المتنوعة، واتساع رقعة المراعي بها، ووفرة الأشياء التي تصدرها، وهذا جعلها إلى حدٍ كبيرٍ متفوقة على جميع المناطق الأخرى.(٢١٧)

ومما لا شك فيه أن الفتح الأغسطسي لمناطق نهر الدانوب والراين جلب مزيداً من الأمن إلى قلب الإمبراطورية الرومانية. لكن هذه المناطق كانت تعاني من عجز الإيرادات، وتحتاج إلى مبالغ كبيرة من الحكومة المركزية لتغطية التكاليف العسكرية. وكان هذا الوضع على المدى الطويل كما وصفه آبيوس كما يلي:

> على الرغم من أن الرومان خسروا المال على بعض الشعوب التابعة لهم، فإنهم يشعرون بالخجل من إهمال هذه الشعوب على الرغم من أنها تضر أكثر مما تنفع.(٢١٨)

في عصر أغسطس، كان سترابون يعتقد أنه لا ينبغي ضم بريطانيا إلى الإمبراطورية الرومانية بسبب المخاطر التي تنطوي عليها، والعجز في الإيرادات الذي يمكن أن تسببه للمالية الإمبراطورية. ويبدو أن الرومان حصلوا على مزيدٍ من العائدات النقدية من فرض ضرائب على السلع التجارية بين بريطانيا وبلاد الغال، أكثر مما توقعت تحقيقه من الغزو وفرض الضرائب المباشرة. وكتب سترابون ما يلي:

> في الوقت الحالي يأتي مزيد من العائدات المالية من الرسوم الجمركية المفروضة على التجارة أكثر مما يأتي عن طريق الجزية، ولو نظرنا إلى النفقات اللازمة لحراسة الجزيرة وجمع الجزية منها.(٢١٩)

في نهاية المطاف كان غزو بريطانيا ينطوي على دوافع سياسية، لكنه أدى إلى مزيدٍ من العجز المالي. يقول آبيوس عن عملية الضم الروماني لبريطانيا:

> استولى الرومان على جزءٍ أكبر وأفضل من بريطانيا، ولم يعيروا أي اهتمام للأراضي المتبقية. لكن الجزء الذي استحوذوا عليه غير مربح جداً لهم.(٢٢٠)

في الأقاليم المختلفة حيث التكاليف العسكرية تكون منخفضة نسبياً، أنفقت الحكومة الرومانية فائض الإيرادات على مشاريع إقليمية مثل أعمال البناء بهدف تحسين البنية التحتية المحلية. ويشير فيلوستراتوس إلى أن العائدات التي تم جمعها من ٥٠٠ مدينة في آسيا الصغرى قد تم إنفاقها في بناء قناة واحدة كلف بناؤها ٢٨ مليون

سيسترس.[٢٢١] وكانت معظم المقاطعات الرومانية ترسل على الأرجح كمية صغيرة رمزية من العائدات إلى الحكومة المركزية، كانت إلى حدٍ كبيرٍ كعمل رمزي من الجزية. ومن المفترض أن كاليجولا أنفق ١٠ ملايين سيسترس على مأدبة واحدة، الأمر الذي أطلق عليه سينيكا "جزية من ثلاث محافظات".[٢٢٢] وتنتقد شخصية أسطورية تعرف بـ"تريمالتشيو"• هذا الوضع عندما يفتخر تريمالتشيو بأن دخل تعاملاته التجارية كان أكبر من العائدات التي قدمتها محافظته إلى روما.

اعتبر الرومان أن نظامهم الاقتصاد كان "معقولاً"، لأن الدولة كانت تطلب الإيرادات لإنفاقها بعد ذلك محلياً على الضروريات المختلفة كالدفاع. ولقد سمع تاكيتوس قائداً رومانياً يلقي الخطاب التالي على بعض المتمردين الذين تمت هزيمتهم في بلاد الغال الشمالية:

> لقد فرضنا عليكم بحق الفتح فقط هذا الطلب الوحيد: وهو أن تدفعوا تكاليف حفظ السلام هنا... هل تعتقدون أنه بإمكانكم تجهيز الجيوش لصد الألمان والبريطانيين مقابل جزية أقل مما تدفعونه لنا الآن؟[٢٢٣]

عندما قامت السلطات الرومانية بزيادة الضرائب في المحافظات كان من بين الأهداف محاولة جعل العائدات المالية تغطي التكاليف المحلية.

تكشف لنا المصادر القديمة كيف كانت روما تعتمد على التجارة الشرقية للوفاء بالتزاماتها المالية. بعد انتصار بومبي في ٦١ قبل الميلاد، كان إجمالي الإيرادات الواردة للدولة الجمهورية تبلغ نحو ٣٤٠ مليون سيسترس سنوياً. يقول بلوتارخ في هذا الصدد ما يلي:

• ظهرت هذه الشخصية في إحدى مسرحيات بيترونيوس كشخص محرر استطاع أن يكوِّن ثروته عن طريق عمله الجاد. (المترجم).

وقد تجلى ذلك على لوحات مكتوبة من أن الضرائب الجديدة بلغت ٥٠ مليون دينار. ومع المبلغ الذي فرضه بومبي للدولة الرومانية، فإن الجمهورية تتلقى الآن ٨٥٠٠٠٠٠٠ دينار.[٢٢٤]

وكان من بين نجاحات الجمهورية الرومانية العسكرية ضم قيصر لبلاد الغال، حيث أدخلت بلاد الغال عائدات أولية قيمتها نحو ٤٠ مليون سيسترس. ولقد زاد هذا من عائدات الجمهورية الرومانية، حيث وصلت لما يفوق ٣٨ مليون سيسترس سنوياً. يقول سوتونيوس:

تلك الأجزاء من بلاد الغال التي خفض قيصر وضعها بعد ذلك لمرتبة مقاطعة، فرض عليها جزية سنوية قدرها ٤٠ مليون سيسترس.[٢٢٥]

عندما حكم أغسطس مصر، كان الاقتصاد فيها في حالة سيئة وخطيرة. في البداية كانت مصر تنتج فقط ٤٠ مليون سيسترس سنوياً من العائدات المالية للنظام الجديد. وهذا أدى إلى أن تبلغ إجمالي الإيرادات السنوية للإمبراطورية الرومانية إلى فائض قدره ٤٢٠ مليون سيسترس. يقول فيلايوس عن ذلك ما يلي:

جعل أغسطس من مصر رافداً يسهم بعائدات تقترب مما جلبه قيصر من من أموال من بلاد الغال.[٢٢٦]

في هذه الحقبة، كان التوسع العسكري للإمبراطورية الرومانية أمراً لا يمكن تحمله مالياً. ولقد أخبر القائد الروماني أجريبا أغسطس أن النظام الجديد ليس لديه عائدات لدفع التكاليف على المدى الطويل. وقال أغسطس:

سوف تحتاج إلى الحصول على كميات كبيرة من الأموال من جميع المصادر المتاحة. عائداتنا الحالية ليست كافية لدعم القوات، ناهيك عن المصاريف الأخرى.[٢٢٧]

ولقد تمت نصيحة أغسطس بإصلاح النظام الضريبي القائم، وسحب الأموال من كل مصدر ممكن للعائدات.[٢٢٨] ومن هنا رسمت الخطط لغزو الجزيرة العربية، كما وضعت خطط لحرب توسعية ضد مملكة الفرثيين المزدهرة.

وفي حقيقة الأمر، لم يتوقع أغسطس ومستشاروه ذلك النمو السريع في التجارة الشرقية، الذي حوَّل الموارد المالية للإمبراطورية الجديدة، ففي غضون خمس سنوات فقط من الحكم الروماني، كان الأسطول التجاري الذي يبحر من مصر إلى الهند يزيد بأكثر من ستة أضعاف.[٢٢٩] كما قادت عملية فرض الضرائب على هذه التجارة الجديدة والإصلاح الاقتصادي لمصر لزيادة سريعة في الإيرادات المتاحة للدولة الرومانية. وفي ظل قيادة أغسطس، سرعان ما بدأت العائدات المصرية تتجاوز المبالغ التي كان يتلقاها الملك البطلمي أوليتيس الذي حكم مصر في وقت مبكر من القرن الأول قبل الميلاد، قبل التراجع الاقتصادي. كتب سترابون عن ذلك ما يلي:

> يخبرنا شيشرون عن عائدات مصر في بعض خطبه. يقول إن أوليتيس، والد كليوباترا، تلقى عوائد سنوية تبلغ ١٢٥٠٠ قطعة نقد (٣٠٠ مليون سيسترس). إذا حصل هذا الرجل الذي كان يدير المملكة بإهمال وبأسوأ الطرق على مثل هذه العائدات الكبيرة، فماذا كنا نتخيل في ظل الظروف الراهنة؟ لكن الآن وبعد إدارة العائدات بحذر ويقظة كبيرة، هل زادت التجارة مع الهنود والأفارقة إلى حدٍ كبيرٍ عن ذي قبل؟ [٢٣٠]

مع العائدات المصرية التي بلغت نحو ٣٠٠ مليون سيسترس سنوياً، تجاوز مجموع الدخل السنوي للإمبراطورية الرومانية ٦٨٠ مليون سيسترس، وبالتالي فقد عملت الثروة التجارية مع أفريقيا والهند على إنقاذ الإمبراطورية الرومانية من أزمة مالية وشيكة.

ساعدت هذه الثروة الناتجة عن التجارة الخارجية على تحوُّل الإمبراطورية الرومانية الجديدة إلى نظام يتمتع بازدهار اقتصادي غير مسبوق. وبدأ أغسطس

إصلاحات رئيسية في الجيش الروماني، وأنشأ جيشاً محترفاً كبيراً لحماية المحافظات، والسيطرة عليها. وبسطت الإمبراطورية الرومانية الآن حكمها مباشرة على شمال أوروبا. كما أقامت حدوداً آمنةً يمكن توحيدها على نحو فعَّال. ويقدِّر العلماء أن نفقات الدولة الرومانية مع هذه الإصلاحات قد اقتربت من ٦٠٠ مليون سيسترس سنوياً.[٢٣١] لقد حذَّر أغسطس خلفاءه قبل وفاته بقليلٍ من مواصلة الفتوحات، التي من شأنها أن تستنزف المزيد من الموارد المالية للدولة الرومانية.[٢٣٢]

لقد توسَّعت التجارة الشرقية في عهد تيبريوس، وبدأت الضرائب الجمركية تضخ كمياتٍ أكبر من العائدات المالية إلى أموال الحكومة المركزية.[٢٣٣] وسرعان ما تجاوزت المبالغ النقدية التي وردت إلى الدولة الرومانية نفقاتها التقليدية. عندما توفي الإمبراطور المنطوي تيباريوس في ٤١م، أنفق خليفته كاليجولا الثروة الهائلة التي تراكمت في خزائن روما. يقول سوتونيوس:

> قام كاليجولا بصرف مبالغ طائلة من المال بما في ذلك الـ٢٧٠٠ مليون سيسترس كان قد جمعها تيباريوس قيصر في أقل سنة.[٢٣٤]

مع هذا الثراء الكبير، كانت الحكومة الرومانية في عهد تيبريوس، ومن المؤكد، تتلقى فائضاً من العائدات السنوية يفوق ١٢٠ مليون سيسترس سنوياً. ولقد شجعت هذه الثروة الجديدة للإمبراطورية على التراخي المادي. ولقد عمل كاليجولا على استعادة عددٍ من الممالك العميلة في الإمبراطورية الشرقية. كما استرد الجزية التي كانت تدفع للحكومات الرومانية السابقة.[٢٣٥] وكان سترابون، كما رأينا، قد نصح بعدم احتلال بريطانيا بسبب عدم جدواها المادية. ولكن في عام ٤٣م تم ضم الجنوب الغربي من بريطانيا على يد كلاوديوس. وكان لدى هذا الإمبراطور الروماني مجموعة معقدة من الدوافع السياسية لهذا الغزو. ولكن مخططه قد نجح بسبب التهدئة طويلة الأمد

للمقاطعات الرومانية المستقرة في تلك الفترة. كانت المقاطعات الرومانية تُموَّلُ من عائدات التجارة الشرقية.

في الفترة الفلافيانية،• كانت الإيرادات التي تنتجها مصر للإمبراطورية الرومانية تبلغ أكثر من ٦٠٠ مليون سيسترس سنوياً. في أوج عصر البطالمة، أنتجت مصر ٣٠٠ مليون سيسترس من الضرائب المفروضة على الزراعة الداخلية، والسكان المقيمين، والرسوم المهنية، والتجارة في البحر الأبيض المتوسط.[٢٣٦] وحقق النظام الروماني الاستفادة من هذه الإيرادات. وبذلك تمت إضافة مبلغ ٣٠٠ مليون سيسترس أخرى مستمدةً من فرض الضرائب على التجارة الشرقية. يؤكد يوسف بن متى أنه في عام ٦٦م كان الرومان يتلقون كمية هائلة من العائدات المالية من مصر. وفي عشية الانتفاضة، خاطب الملك اليهودي أغريباس قومه ليحذِّرهم من اليأس من أيِّ تمرد ضد روما. وقال:

> انظروا إلى السلطة الرومانية في أقرب جيراننا مصر. مصر تمتد حتى إثيوبيا واليمن، وهي منفذ للهند، وما حفَّز لثورة مصر ما لديها في الإسكندرية من حجمها الكبير وسكانها وثرواتها! مدينة طولها ثلاثة أميال ونصف الميل، وكيلو متر عرضاً، وتدفع لروما كل شهر أكثر مما تدفعونه من جزية في السنة، وترسل سنوياً لروما ما فيه الكفاية من الذرة للاستخدام لمدة أربعة أشهر.[٢٣٧]

وفي فقرةٍ أخرى من أعمال يوسف بن متى يخبرنا هذا المؤرخ أن فلسطين أنتجت عائدات مالية تُقدَّر بنحو ٤٨ مليون سيسترس سنوياً.[٢٣٨] وبذلك، فإن مصر تكون قد وفَّرت لروما سنوياً أكثر من ٥٧٦ مليون سيسترس من الإيرادات النقدية.[٢٣٩]

يقدِّر بعض الأكاديميين أنه بحلول هذا العصر كانت ميزانية النفقات في الإمبراطورية الرومانية ما بين ٨٠٠ و٩٠٠ مليون سيسترس سنوياً.[٢٤٠] وأن نحو

• يقصد بها فترة حكم عائلة فلافيان من عام ٦٩ – ٩٦م. (المترجم).

٦٠٠ مليون سيسترس من هذا الرقم جاء من الإيرادات المصرية. وهناك ٣٨٠ مليون سيسترس أخرى يجري جمعها وإنفاقها كأموال عائدات للمحافظات. ولقد تم تمويل ما يقرب من ثلث نفقات الإمبراطورية من ضريبة أرباح التجارة الشرقية. وإذا أخذنا العائدات المالية من مصر خارج الحسبان، فإنه لم يكن هناك أي عملية تحويل كبيرة من الضرائب المفروضة على المقاطعات إلى العاصمة الرومانية.

كان امتلاك مصر يعني للرومان السيطرة على ثلثي العائدات النقدية الإمبراطورية، وثلث الحبوب التي كان الرومان يحتاجونها سنوياً لإطعام سكان روما.[٢٤١] وكان الخطر الذي تشكله مدينة الإسكندرية في هذه الفترة يتمثل في احتمالية نجاح أحد المطالبين بالعرش الإمبراطوري في تنصيب نفسه على المنطقة، ويضيق الخناق الاقتصادي حينها على الإمبراطورية الرومانية. وكانت أهمية مصر للنظام المالي الروماني، وراء فرض أغسطس مجموعة من القيود السياسية الصارمة على المحافظة. وفي ظل النظام الروماني، كان حاكم مصر صاحب رتبة في الفروسية الرومانية، ولم يسمح لأعضاء مجلس الشيوخ بزيارة المنطقة. وعلاوة على ذلك، لا يمكن لأي سكندري أن يصبح عضواً في مجلس الشيوخ. ولم يسمح للمدينة بوجود مجلس إداري.[٢٤٢] وكان من بين الأسباب التي جعلت من فيسباسيان المدعي الأقوى في الحرب الأهلية الرومانية عام ٦٩م، أن حاكم مصر تيبريوس يوليوس الكسندر أعلن تأييده له.[٢٤٣]

الموارد المالية الرومانية

خلال فترة حكم الأباطرة، واصلت روما استغلال مناجم الذهب والفضة المثمرة للغاية في مقاطعاتها التي قامت بغزوها. وكانت هذه الموارد تنتج ثروة هائلة للحكومة الرومانية. ومن المؤكد أنها قد ساهمت في فائض الإيرادات، الذي كان

يحدث بالفعل في ذلك الوقت ابتداءً من عهد تيبريوس. كان أحد أهم المواقع المنتجة لهذه السبائك إسبانيا الرومانية. وخلال ذروة الإنتاج، كانت المناجم الرئيسية في إسبانيا تنتج سنوياً ثروة تعادل حوالي ٤٠ مليون سيسترس من الفضة، و٩٠ مليون سيسترس من الذهب.[٢٤٤]

لم يكن الاقتصاد الروماني مصمماً ليتمتع بالاستقرار. لكن الظروف اللاحقة قادت إلى هذا الاتجاه، فعلى المدى القصير، كان النظام مستقراً من الناحية المالية. كما قامت الحكومة الرومانية بسك العملة من مخزونها من الذهب المستخرج حديثاً. ولم تتوانَ الحكومة الرومانية في إرسال هذه الأموال للجيوش في المحافظات الحدودية لدفع رواتب الجنود. ولقد قادت هذه العملية بشكلٍ مستمرٍ إلى تداول كميات كبيرة من القطع النقدية الجديدة، وبذلك تم تعويض الخزانة الرومانية عن الثروة النقدية التي فقدتها الإمبراطورية من خلال صادراتها الشرقية.[٢٤٥] وبحث العرب من خلال تعاملهم التجاري مع روما عن سبائك الفضة، بينما كان التاميل يفضِّلون الذهب. وبناءً على ذلك، وفي زمن بلني، ربما كان الاقتصاد الروماني يقوم بتصدير ٥٠ مليون سيسترس من الفضة، وما يصل إلى ٥٠ مليون سيسترس من الذهب سنوياً إلى الشرق البعيد.[٢٤٦] وطالما واصلت عمليات التعدين إنتاج كميات كبيرة من السبائك الجديدة، فإن الاقتصاد الروماني لن يتأثر من خلال استنزاف المعادن الثمينة شرقاً.

وكان لسبائك الذهب الهندية تأثير مزدوج على النظام النقدي الروماني. وكانت الممالك الهندية الشمالية تقدر الفضة أكثر بكثيرٍ من تقدير الرومان لها، حيث كان سكانها يفضلون الحصول على نسبة واحدة من الذهب مقابل عشر نسب من الفضة.[٢٤٧] ولقد عمل النظام النقدي الروماني، الذي جعله أغسطس ذا طابع رسمي، على تثبيت قيم مختلفة للمعادن الثمينة مع التقليل من القيمة الحقيقية للفضة

بشكل مؤثر، حيث كان الديناري والقطع النقدية الذهبية تساوي في هذه الحقبة حوالي ١٢ مقداراً من الفضة مقابل مقدارٍ واحدٍ من الذهب. ولقد أثَّر الاتصال مع الهند على أسعار السبائك داخل الأراضي الرومانية، ولما تطورت التجارة الشرقية، أصبح النظام النقدي الأغسطسي أقل تمثيلاً لقيم السبائك الفعلية في السوق الرومانية.

كان يوجد لدى نيرون العديد من الأسباب "لإصلاح" العملة الرومانية في سنة ٦٤ بعد الميلاد، ولكن يبدو أن التجارة الشرقية، وتأثيرها على قيم السبائك قد شجع على هذا التعديل للعملة الإمبراطورية. وكانت إصلاحات نيرون تتمثل في خفض قيمة الديناري الفضي، بحيث تبلغ قيمة المال الروماني ١١ مقداراً من الفضة إلى مقدارٍ واحدٍ من الذهب.[٢٤٨] ثم قام تراجان في وقتٍ لاحقٍ بإعادة ضبط نسب الذهب مقابل الفضة في العملات الإمبراطورية إلى مستوى يتشابه كثيراً مع تقدير الهنود لهذه المعادن الثمينة.

الاقتصاد الروماني

لقد مكَّن النجاح العسكري الروماني في البحر الأبيض المتوسط الإمبراطورية الرومانية من الاستحواذ على شبكة تجارة واسعة ورائجة، فبعد ضم مصر، فتح أغسطس المحيط الهندي لتجارة البحر الأبيض المتوسط. ولقد أعطت التجارة الشرقية لنظام البحر الأبيض المتوسط زخماً جديداً. وتزعمت روما بعد وقتٍ قصيرٍ نظاماً اقتصاداً تجارياً لم يسبق له مثيل.[١٤٩] أصبح النظام المالي الروماني الآن متميزاً عن النظام الإغريقي السابق، أو حتى الاقتصادات الإغريقية الكلاسيكية.[٢٥٠] وقد غيَّر الرخاء الاقتصادي والأمن الجديدان اللذان أطلقتهما روما وجه أوروبا الغربية، وعملا على زيادة عدد سكان الإمبراطورية من ٤٥ إلى ٦٠ مليون نسمة بين عصر أغسطس وعصر أنطون.[٢٥١]

لقد كثفت التجارة الرومانية مع الشرق البعيد عملية الإنتاج في اقتصاد البحر الأبيض المتوسط، فعلى سبيل المثال، وجد الفائض من نبيذ إيطاليا طريقه إلى الأسواق الهندية. وقامت ورش العمل المصرية بتصنيع الملابس على النمط العربي ليتم تداولها في أسواق الشرق البعيد.[٢٥٢] كما كان للتجارة النامية تأثير على موارد البحر الأبيض المتوسط، كما تم تجريد المقاطعات الرومانية من احتياطياتها الطبيعية للتجارة. ويسجل بلني تأثير الموضة الهندية على الشعاب المرجانية الحساسة في البحر الأبيض المتوسط. يقول بلني في هذا الخصوص:

> اعتاد الإغريق زخرفة الدروع، والسيوف، والخوذات بالشعاب المرجانية. ولكن هذا كان قبل أن يصبح الولع الهندي بهذه المواد معروفاً. ومنذ أن أصبحت الشعاب المرجانية بضائع مربحة عانت نقصاً كبيراً، وهي الآن نادراً ما ترى في بيئتها الطبيعية.[٢٥٣]

تعبر هذه التعليقات عن مدى الوعي بأن الرعايا الرومان قد تطوروا من مجتمعات محلية كانت تنتج زخارف عسكرية بسيطة إلى مجتمع يستطيع على نحو متزايدٍ المنافسة الاستهلاكية التي تحركها الموضة. وتحدث جوفينال عن الأحجار الكريمة التي كانت تستخدم من قبل لتزيين الأكاليل العسكرية التي كانت توضع على أصابع الرجال الأثرياء. ولكن بعد ذلك قلت قيمتها حتى استخدمت لاحقاً لتزيين أدوات المائدة.[٢٥٤] كتب بلني أيضاً عن دروع أفراد الحملة التي كان يتم استبدالها بالتوجا، ومن ثم يتم التخلص منها لتحل محلها ملابس حريرية تتماشى مع الموضة.[٢٥٥] وكان لهذا الاستهلاك الروماني أثر مدمرٌ على نوع قيِّم من النبات ينمو في شمال أفريقيا اسمه "سيلفيوم". وكان للسيلفيوم خصائص مطهرة، ولكن قيمته السوقية شجعت بعد ذلك على الاستغلال المفرط، وسرعان ما انقرض هذا النبات نتيجة الاستغلال الجائر. ويخبرنا بلني أنه قد تم إرسال آخر ساق من هذا النبات إلى الإمبراطور نيرون الذي دفعه فضوله للبحث عنه.[٢٥٦]

بحلول الوقت الذي كتب فيه بلني كتابه *"التاريخ الطبيعي"* كانت التجارة الرومانية قد غيَّرت تماماً الحضارة الكلاسيكية. كتب لنا بلني ما يلي:

> لا بد أن يأخذنا التعجب والإعجاب، حيث قدمنا من دولة بدائية، ونحن الآن نشق الجبال بعيداً من أجل مرمرها، ونصل إلى السيريس من أجل الحصول على ملابسنا، كما نسعى للحصول على اللؤلؤة من أعماق المحيط الهندي، والزمرد من أعمق أعماق الأرض. وينبغي أيضاً أن نندهش من كون الناس اتخذوا فكرة ثقب آذانهم لوضع هذه الزينة. لم يعد الأمر مقتصراً على ارتداء هذه الأحجار الكريمة في القلائد والتيجان، بل لقد اختار الناس وضعها أيضاً في أجسادهم.[٢٥٧]

كانت أسواق التجزئة المزدحمة في روما وبازاراتها هي القوة المحركة لهذا الاقتصاد التجاري. وكانت روما منطقة جذب رئيسة للمشاريع التجارية السكندرية التي تجلب البضائع الشرقية الجديدة إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط. كما كانت روما أيضاً المدينة الأكثر كثافة سكانية في العالم القديم بما يقرب من مليون نسمة. على هذا النحو، فقد كانت روما تحتاج إلى كميات كبيرة من المنتجات الاستهلاكية الأساسية، فضلاً عن الحاجة إلى دعم تجارة هائلة من الواردات الفاخرة.[٢٥٨]

في زمن بلني، أصبحت روما أكثر بكثير من مجرد مركز للاستهلاك الاقتصادي، حيث أصبحت بمثابة سوق ضخم يتم فيه بيع وتوزيع السلع في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. وفي العالم القديم، كانت معلومات السوق تتحرك بسرعة الإمدادات والبضائع نفسها. ونظراً للظروف البيئية كان هناك نقص في الغذاء في بعض مناطق الإمبراطورية الرومانية، في حين تتمتع بعض المناطق الأخرى بفائض كبير.[٢٥٩] ولقد كانت روما هي نقطة التقاء التجار أصحاب الفائض المالي القادمين لتحقيق عمليات بيع مربحة. كما كانت هي المكان الذي سيجد فيه التجار القادمون من المناطق والأسواق التي بها عجز لينجحوا في العثور على السلع التي يبحثون عنها، حيث نجح

ارتفاع الأسعار المدفوعة في أسواق روما في جذب التجارة من جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية.[٢٦٠]

لقد كان أمراً مهماً أن يرى سكان الأقاليم ثروة روما الكبيرة متمثلةً في التجارة ولا سيما تجارة توزيع السلع الشرقية. لقد قام مؤلف كتاب *الآيات* بتعداد الكماليات الشرقية ليعبِّر عن الخسائر التي حصلت بعد الحريق العظيم عام ٦٤م، حيث يقول:

> لقد بكاها تجار الأرض ولبسوا من أجلها ملابس الحداد، فلا يشتري رجل بضاعة من بضائعها بعد الآن، لا بضائع من الذهب، أو الفضة، أو المجوهرات، أو اللؤلؤ، أو الكتان الراقي، أو الأرجواني، أو الحرير، أو القرمزي، أو جميع أنواع الخشب المعطر، أو العاج، أو الأدوات المصنوعة من الخشب المكلف، أو البرونز، أو الحديد، أو الرخام، أو القرفة، أو التوابل، أو البخور، أو المر، أو اللبان، أو النبيذ، أو الزيت، أو الدقيق الفاخر، أو القمح، أو البقر، أو الغنم، أو الخيول، أو العربات، أو العبيد.[٢٦١]

من بين أول العشرين سلعةً الواردة في هذا المقطع، يوجد تسع منها من المنتجات الأصلية المكلفة والمعروفة في الإمبراطورية، وإحدى عشرة سلعة من السلع القيمة المستوردة من أراضي الشرق البعيد.

بالنسبة للمراقبين، يبدو كما لو كانت روما تدين بازدهارها لتجارة دولية واسعة في السلع الغريبة. وفي خطاب بلاغي يشير أريستيد إلى أهمية روما كسوق هائل لاستهلاك الواردات الشرقية وتوزيعها. ويصف روما قائلاً:

> تصل الكثير من السفن التجارية إلى هنا، وتنقل كل أنواع البضائع في كل ساعة من كل يوم، لدرجة أن المدينة أصبحت تشبه مصنعاً مشتركاً للأرض كلها، فمن الممكن أن ترى عدداً كبيراً من بضائع الهند واليمن السعيد، لدرجة أنك قد تتخيل أن أشجارهم قد تركت عارية وأنه يجب عليهم القدوم إلى هنا للتسول مقابل منتجاتهم إذا كانوا بحاجةٍ إلى أي شيء منها. وهنا يمكنك رؤية الملابس القادمة من بابل، والحلي القادمة من العالم الهمجي الواقع خلفها.[٢٦٢]

في كل عام كانت الأساطيل التجارية تبحر من الإسكندرية إلى روما مُحمَّلةً بالحبوب المصرية بما يكفي لإطعام المدينة لمدة أربعة أشهر، كما كانت هذه الأساطيل تحمل أيضاً مجموعةً كبيرةً من السلع الشرقية الفريدة والغريبة التي تقدَّر بمليارات السيسترس. ونظراً لكون هذه السلع الشرقية غير متاحة داخل الإمبراطورية الرومانية، كان هناك سوق مضمون لهذه البضائع. ومع ذلك، بعد بيع هذه السلع في أسواق روما، قد لا يجد التجار السكندريون شحنات مماثلة لرحلة العودة، يقول سترابون:

> الصادرات من الإسكندرية أكبر من الواردات. أي شخص يمكنه أن يحكم على هذا من خلال رؤية السفن التجارية في أيٍّ من الإسكندرية أو بوتيولي. ويمكنه ملاحظة مدى ثقل السفن حين وصولها ومدى خفتها حين مغادرتها.(٢٦٣)

ومن هنا، فإن التجار السكندريون كانوا يعودون إلى مصر بنسبة كبيرة من أرباح تجارتهم نقداً، الأمر الذي كان في غاية الأهمية بالنسبة للاقتصاد الروماني.(٢٦٤) وفي كل عام كانت الحكومة المركزية تحصل على ما يصل إلى ٦٠٠ مليون سيسترس من الإيرادات النقدية من مصر. ومع مرور الوقت أوجدت التجارة الشرقية ظروفاً سمحت لمصر بإعادة الحصول على هذه السيولة كأرباح تجارية. وهذا كفل على المدى الطويل أن الإيرادات الرومانية لن تستنفد احتياطيات الثروات من العملة النقدية لمصر.(٢٦٥)

لقد حافظت مصر على عملتها الإقليمية، لذلك قام التجار العائدون إليها من أسواق روما بتحويل أرباحهم النقدية إلى عملتهم المحلية.(٢٦٦) وقامت الدولة الرومانية بفرض ضريبة على هذا التحويل من العملة الرومانية إلى مصرية. ومن المؤكد أنها قد حافظت على صندوق كبير من كلا النوعين من العملة لهذا الغرض. وسمح هذا الاحتياطي الهائل من المال للحكومة الرومانية بتحويل عائدات الضرائب المحلية التي جمعت في مصر إلى عملة الإمبراطورية لإعادتها إلى روما.

كان بإمكان مصر أن تنتج عائدات على هذا النطاق بسبب ظروف السوق على امتداد أراضي الإمبراطورية الرومانية. لقد دفع التجار السكندريون للحكومة الرومانية أرباحاً كبيرةً من الضرائب لجلب الواردات الشرقية إلى مصر. ثم استردوا تكلفة هذه الضرائب من خلال زيادة سعر التجزئة للسلع في روما، وأسواق البحر الأبيض المتوسط الأخرى. وكان هذا النظام يعني أنَّ عدداً أكبر من السكان الرومان قد دفعوا على نحو فعَّال الإيرادات الجمركية في مصر. من خلال التجارة الشرقية، كانت روما تفرض ضرائب على الأرباح التجارية، وهذا يعني بالتالي فرض ضرائب غير مباشرة على المجتمعات المحلية في جميع أنحاء الإمبراطورية، الذين لديهم فائض كافٍ للإنفاق على المنتجات ذات الطابع الشرقي المرغوب فيه.[٢٦٧] كان الجندي الروماني الذي يشتري الفلفل في شمال بريطانيا يموِّل نظاماً تجارياً يدفع المال للخزانة المصرية. وبالتالي كانت التجارة الشرقية تحصل على الأرباح من جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، حيث كان الرعايا الرومان يتطلعون إلى أزياء شعبية جديدة وقدموا تبعاً لذلك وعن طيب خاطرٍ أموالهم لشراء هذه الواردات المرغوبة.

وقد تم جمع أكثر من نصف العائدات التي تنتجها مصر الرومانية عن طريق فرض الضرائب على التجارة الشرقية. وهذا يعني أن الإيرادات المصرية كانت متناسبةً مع قيمة الواردات الشرقية. وكانت قيمة البيع بالتجزئة من الواردات الشرقية تحدِّد أيضاً المبالغ النقدية التي تعود إلى مصر على أنها أرباح سوقية. ولذلك فإن هناك علاقة مباشرة بين التجارة البعيدة وتمويل الدولة الرومانية مع العائدات النسبية للتجارة، التي تحدِّد أيضاً الأرباح العائدة من المبيعات في الخارج. ولقد أفرز هذا النظام الضريبي للتجارة توازناً أوجد استقراراً طويل الأمد في الاقتصاد الروماني. ومع وجود التجارة

الشرقية، تمكنت مصر من إنتاج عائدات ضريبية هائلة للحكومة المركزية، لكن التجارة الشرقية أعطت لمصر أيضاً القدرة على سد النقص في العملة كأرباح تجارية من روما.

في هذا العصر، حصلت الإمبراطورية الرومانية على جزءٍ كبيرٍ من ثروتها، مما كان في الأساس نظاماً قائماً على الحوافز. ومع توسع التجارة الرومانية، حصلت الحكومة على عائدات جديدة وكبيرة دون حاجة الدولة للجوء إلى مزيدٍ من القسر لرعاياها. في هذا النظام، بحث التجار الذين أكرهوا على الربح عن أراضٍ في المحافظات الرومانية يوجد بها فائض، ثم حصلوا على هذه الثروة من خلال استغلال الطلب المحلي على السلع الشرقية. ولقد أرسلت الحكومة الرومانية العملة إلى محافظاتها، التي تعاني عجزاً اقتصادياً لدفعها إلى هذه المناطق العسكرية من الثروة المكتسبة من الضرائب المصرية والسبائك الجديدة. وضمنت هذه الاعتمادات تلقي القوات الرومانية على الحدود بانتظام على الأقل جزءاً من رواتبهم التي كانت تدفع بقطع العملة. وجذب توافر هذه الأموال التجار للمحافظات الحدودية التي كانت تتوافر على البضائع واللوازم لبيعها للجيوش الرومانية. وبالتالي خلق التجار البنية التحتية التي تزوِّد وتجهِّز الجيش على الحدود. (٢٦٨)

كانت التجارة الشرقية الواسعة قادرةً على زيادة أرباحها مع توافر الحد الأدنى من البنية التحتية للدولة الرومانية. كانت الحكومة الرومانية تحتاج فقط إلى السيطرة على عددٍ قليلٍ من نقاط الجمارك على البحر الأحمر ومناطقها النائية لجمع عائدات هائلة من هذه التجارة. كان بإمكان استثمار صغير نسبي من الأفراد العسكريين جمع أكثر من ثلث مجموع الموارد المالية للإمبراطورية. لقد خفض هذا الحد الأدنى من البيروقراطية احتمالات الابتزاز في مجال الإدارة المحلية، وسمح بنسبة أكبر من الثروة التي تخضع للضريبة أن تصل إلى الخزانة الرومانية. هذا النظام المالي يعني أنه في كثيرٍ

من المحافظات التابعة كان بإمكان الرومان ترك الإدارة المحلية إلى حدٍ كبيرٍ في أيدي النخبة الحاكمة التقليدية، وحيث إن النخبة المحلية كانت أكثر المرشحين لإحداث انشقاق، أو ثورة أوسع ضد روما، فقد استفادت الحكومة المركزية كثيراً من ضمان امتثالهم لها.[٢٦٩] كان النظام الروماني ناجحاً لدرجة أن قلة من معاصريه فقط كانوا قادرين على التنبؤ بالكيفية التي سيزول بها هذا الازدهار.

التحدي أمام الإمبراطورية

لقد نجحت الإمبراطورية الرومانية في إنشاء نظام عصي على الاضطراب. لقرنين من الزمان حكم الأباطرة روما من خلال نظام مستقرٍ سياسياً بتمويلٍ من اقتصادٍ مزدهرٍ من العائدات المالية الضخمة. وكانت هذه الموارد المالية تعتمد اعتماداً كبيراً على نجاح إدارة الثروات التجارية المستوردة من مصر، والهند، والشرق البعيد.

لقد كانت الإسكندرية وروما تقعانِ في مركز القلب من النظام المالي الروماني، حيث تم ربط هاتين المدينتين التجاريتين عن طريق البحر المتوسط، الذي عمل كقناةٍ رئيسيةٍ للاتصالات التجارية. وقامت منطقة عازلة من المحافظات الكبيرة بحماية هذه النواة الاقتصادية للإمبراطورية الرومانية، كما كان هناك جيش محترف ومجهَّز تجهيزاً جيداً على الحدود للتصدي لأي تهديد خارجي. وكانت مدينة الإسكندرية مورداً للأسواق ووسيطاً بين العالمين الغربي والشرقي. وكانت روما تمثل سوق التجزئة الكبير، الذي جعل من هذه التجارة تجارة مربحة. استمرت المحافظات المنتجة للسبائك مثل إسبانيا، وداسيا، بالاحتفاظ بثروة الإمبراطورية من خلال عملياتها التعدينية واسعة النطاق. وللحفاظ على استمرار هذا الازدهار، كان على الإمبراطورية الرومانية الاحتفاظ بالسيطرة على الاقتصاد المصري، وضمان خلو الأسواق التجارية في روما من الاضطرابات. وكما كان الازدهار الاقتصادي يعتمد أيضاً على قدرة الحكومة على

الوصول إلى كميات كبيرة من السبائك الجديدة لتجديد موارد المعادن الثمينة التي تم إنفاقها في التجارة الشرقية. لقد ألحقت الكوارث الطبيعية مثل ثوران بركان فيزوف، واندلاع الحرائق في الصومال، بعض الضرر ببعض جوانب التجارة الشرقية. ومع ذلك، كانت التجارة الدولية من السعة بمكان مكَّنتها من عدم التأثر الدائم بهذه الأحداث. ومن هذا المنطلق نجد هذه التجارة الدولية سرعان ما تعافت.

مع منتصف القرن الثاني الميلادي كان الازدهار التجاري والمالي للإمبراطورية الرومانية هائلاً. وعندما توفي أنطونيوس بيوس في ١٦١م، ترك لخليفته ماركوس أوريليوس فائض إيرادات في الخزانة الرومانية يبلغ ٢٧٠٠ مليون سيسترس.[٢٧٠] كان يمكن أن يتسبب تمرد بعض المحافظات، وكذلك بعض الغزوات الأجنبية، في تعطيل اقتصاد المحافظات البعيدة. ولكن روما لم تكن تعتمد على موارد هذه المقاطعات المالية لكافة عملياتها.[٢٧١] وكان لدى الحكومة الرومانية المركزية الدخل المادي والموارد العسكرية الكافية للتعامل وبقوة مدمرة مع أي تمرد محلي محتمل أو غزو أجنبي. كانت الحرب الأهلية تمثِّل تهديداً لاستقرار النظام، ولكن هذه الصراعات لم تستمر لأن الفصائل العسكرية التي تحكم مصر كانت تسيطر على الموارد المالية للدولة الرومانية. ولم يكن هناك أي عدو واحد يمتلك من القوة ما يكفي لهزيمة الإمبراطورية الرومانية، حيث إن موقعها في العالم القديم كان محصَّناً. وفي الشرق الأقصى، كانت الدولة الرومانية تقابل جيوشاً كبيرة من إمبراطورية الهان تتميز بحجمها الكبير وتنظيمها الجيد، ولكن المسافة بين القوتين كانت كبيرة جداً، لدرجة أن هذه الجيوش لم تكن تشكل تهديداً عسكرياً كبيراً لروما. لكل هذا فقد تصور أصحاب الدعاية الإمبريالية وبثقة استمرار حكم أبدي لإمبراطورية رومانية على العالم.

لم يكن سبب الأزمة التي أضعفت الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني الميلادي وألحقت أضراراً قاتلة بتفوقها تتمثل في عدو بشري ولكنها كانت تتمثل في فيروس مجهري فتاك. لقد نشأ هذا التهديد غير المرئي في آسيا الوسطى، وانتشر بعد ذلك بين سكان العالم القديم. كان المرض هو المعتدي، ولم تتمكن الإمبراطوريات العظمى في روما والصين من التغلب عليه على الرغم من قوة جيوشها ومواردها الضخمة التي كانت تحت تصرف حكوماتها الإمبريالية. عندما وصل هذا الوباء المنتشر إلى الشرق الأقصى في عام ١٦١م، بدأ في إلحاق خسائر رهيبة بين سكان إمبراطورية الهان. وعلى الحدود العسكرية فقدت القوات الصينية ما بين ٣٠ و٤٠ في المائة من أعدادها، حيث قتل الجنود، أو أضعفوا جراء موجات التفشي الأولى القاتلة من هذه العدوى.[٢٧٢] ولم يكن لهذه الأزمة أي مثيل سابق. ولقد بدأت الثقة في الحكومة تنهار مع إدراك السكان الصينيين المحبطين أن حكامهم لم يكونوا جادين في مواجهة هذا التهديد الجديد. وبعد جيلٍ من الانحدار، دخلت إمبراطورية الهان حقبة من الاضطرابات السياسية، التي انتهت بانقسام الدولة إلى العديد من الممالك المتناحرة.

ولقد جلب هذا الفيروس الخراب نفسه إلى الحدود الرومانية المحصنة. وألحق خسائر أكبر في صفوف الفيالق العسكرية أكثر مما يأمل أي هجوم بربري في تحقيقه.[٢٧٣] كما نجح هذا الوباء أيضاً في نشر العدوى من خلال مركز البحر الأبيض المتوسط في الإمبراطورية، حيث تم انتقاله داخل الأسواق الرومانية المزدحمة، حيث يتجمع الناس لمزاولة أعمالهم التجارية.

تغيرت حظوظ روما بشكل كبير في أعقاب الوباء الأنطوني. وكان تقدير أغسطس أنه لا يمكن المحافظة على الإمبراطورية الرومانية الشاسعة من خلال نظام الضرائب الذي قد فرضته روما على سكانها ورعاياها، إلا أنه مع تعزيزات عائدات

التجارة الشرقية استولى الأباطرة اللاحقون على مزيد من الأراضي التي تعاني من عجز مالي، مما جعل نفقات الدولة على القوات المسلحة تزداد. وفي القرن الثاني الميلادي، كانت روما تعتمد بالتالي على الإيرادات الكبيرة المستمدة من التجارة الشرقية. وعندما دمَّر هذا الوباء الأرباح التجارية للنظام المالي الروماني، وجدت الحكومة الرومانية أنها لم تعدْ قادرةً على دفع تكاليفها العسكرية الكاملة من الإيرادات التي تردها من المحافظات. ولأول مرة منذ عهد أغسطس كان هناك نقص خطير في خزانة الدولة، وواجهت الإمبراطورية من الآن سلسلةً متواصلةً من الكوارث التي بدأت في تهديد نظامها القائم.

لم تتأثر الشعوب الجرمانية التي كانت تعيش بعيداً عن الحدود الشمالية بشكلٍ كبيرٍ جداً بهذا الوباء، فكانت مجتمعاتها المتباينة تفتقر إلى المراكز الحضرية ذات الكثافة السكانية العالية للبحر الأبيض المتوسط. ولم يكن محاربوها مجتمعين في أماكن متلاصقة مثل الحاميات الرومانية. عندما تغلَّب المرض على الجيش الروماني على الحدود، قامت الجماعات الجرمانية، بقيادة قبيلة ماركومانّي، بهجوم شرس على الإمبراطورية الرومانية الضعيفة. يذكر يوتروبيوس:

> كانت الحرب الماركومانية هائلة؛ لأن الجيوش كلها قد فقدت بسبب المرض... انتشرت الأوبئة المدمرة من روما إلى جميع أنحاء إيطاليا والمحافظات. وتقلص الجزء الأكبر من السكان وتقريباً جميع القوات بسبب المرض.[٢٧٤]

كان هذا التهديد الجرماني كبيراً لدرجة أن بعض المصادر اللاحقة شَبَّهَتْ هذا الصراع بالحرب البونية التي دارت بين قرطاج وروما عندما تجاوزت الجيوش البربرية أجزاءً كبيرةً من إيطاليا. كان الجميع يعتقدون بضرورة وقف الغزو الجرماني وإلا فإن سيادة الإمبراطورية الرومانية ستنتهي وللأبد.

كان الإمبراطور الروماني الحاكم في هذه الحقبة هو الفيلسوف ماركوس أوريليوس. حشد أوريليوس القوات الرومانية المحطمة من أجل التغلب على الغزاة، وإنقاذ الإمبراطورية الرومانية من حافة الدمار. وتذكر بعض المصادر القديمة بعض التدابير الاستثنائية التي اتخذها الإمبراطور لاستعادة الجيش الروماني، ومواصلة حربه بنجاح، حيث تقول المصادر:

> حينما كان الوباء مستعراً، تم تدريب العبيد على أداء الخدمة العسكرية، وتم تسليح المصارعين أيضاً، وتم تعيين قُطَّاع الطرق من دالماتيا، ودارданيا كجنود، كما تم تسليح حراس المدينة، بل تمت الاستعانة أيضاً بالجرمانيين لمحاربة أبناء شعبهم.[٢٧٥]

طوال هذه الحملة ضد الجرمان كان على المؤسسات الرومانية مكافحة الآثار المدمرة الناجمة عن المرض. تذكر لنا بعض المصادر ما يلي:

> كانت الحرب الماركومانية أكبر من أي صراع في الذاكرة. شَنَّ الإمبراطور حرباً كبيرةً في وقت كان فيه مرض رهيب يقتل، بانتظامٍ، الآلاف من المدنيين والجنود.[٢٧٦]

قام أوريليوس بتمويل عملياته الحربية بالأموال المتوافرة في الخزينة الرومانية. وكان بهذا العمل يسحب من مخزون كبير لثروة رومانية تراكمت على مرِّ الأجيال السابقة. ولكن عندما أصبحت هذه الموارد المالية نادرة، بدأ الإمبراطور الروماني في بيع كنوز الإمبراطورية بهدف جمع الأموال التي يحتاجها. تقول المصادر القديمة في هذا الصدد:

> عندما استنزف الإمبراطور الخزينة لهذه الحرب، لم يستطعْ فرض ضرائب إضافية على أبناء المحافظات. وبالتالي أجرى الإمبراطور مزاداً علنياً في منتدى تراجان، حيث باع أثاث الإمبراطورية بما في ذلك كؤوس الكريستال، والذهب، والأكواب الملكية، والثياب الحريرية المطرزة بالذهب، التي تخص زوجته ومجوهرات هادريان.[٢٧٧]

وفي ظل القيادة الكاريزمية لماركوس أوريليوس نجحت الإمبراطورية الرومانية في وقف الغزو الجرماني، واستعادت حدودها الشمالية، وأبقت بذلك على وحدتها الماضية. لكن في عام ١٨٠م، وبعد ما أنهكته هذه الحملات، وقع الإمبراطور نفسه فريسةً للمرض. وفي ساعاته الأخيرة، أمر أوريليوس ابنه كومودوس بترك مرافقته في حال ما تعرض أيضاً للعدوى، وعندما رأى حزن مستشاريه قال متأملاً: "لماذا تبكون عليَّ؟ عليكم بدلاً من ذلك أن تفكروا في المرض والموت الذي هو بيننا جميعاً".[٢٧٨]

لقد صرح دايو أنه بعد وفاة الإمبراطور الروماني أورليان سينحدر التاريخ الروماني من "عالم من الذهب" إلى عالم من"الحديد والصدأ".[٢٧٩] وبذلك انتهى من الناحية العلمية "العصر الذهبي" للإمبراطورية الرومانية. لم تعدْ السياسة الإمبريالية قادرةً على الاعتماد على الأرباح المجنية جراء النزعة الاستهلاكية، ولكنها من الآن ستعتمد على القوة العسكرية في عالم متدهور. كان الكثير من المشاكل التي واجهتها الدولة الرومانية في القرن الثالث الميلادي ناتجة عن انخفاض عائداتها المالية.[٢٨٠] ولم تعدْ الإمبراطورية الرومانية قادرةً على استعادة اتصالاتها التجارية الحيوية مع الشرق البعيد. وبمرور الوقت، وكنتيجةٍ لكل هذه المتغيرات، تفاقمت الأزمة المالية في الإمبراطورية الرومانية.

وعلى الرغم من انهيار إمبراطورية الهان، إلا أن الدولة الرومانية بقيت أطول بكثير، ويرجع الفضل في ذلك إلى تماسك مؤسساتها العسكرية. ومع استمرار أزمة الإيرادات، اضطرت الفيالق العسكرية للتدخل في شؤون الحكومة المركزية لضمان تلبية احتياجاتها المالية من دخل الإمبراطورية المخفض. وفي هذه الفترة أصبحت الحروب الأهلية أكثر تكراراً، حيث قامت الجيوش الإقليمية المختلفة بدعم جنرالاتها لتولي منصب الإمبراطور. وبمجرد وصولهم إلى السلطة سرعان ما يدرك هؤلاء

الجنرالات أنهم لا يستطيعون إدارة النظام المالي لضمان تلقي جميع الجيوش ما يكفي من الأجور على المدى الطويل.[٢٨١] وقد أدى إهمال مناطق عسكرية معينة إلى تجدد جولات الحرب الأهلية مع إرسال مزيدٍ من المنافسين للمطالبة بمنصب الإمبراطور. وأصبحت الحكومة الرومانية تواجه من الآن تهديد جيوشها، حيث أصبحت قوة السلاح هي الفيصل في تحديد التفوق السياسي. نعم لقد كانت هذه هي "مملكة الحديد" التي وصفها دايو.

تعامل الأباطرة اللاحقون مع نقص العائدات المالية من خلال التقليل من قيمة العملة الرومانية في محاولة يائسة لإيجاد مزيدٍ من المال من الاعتمادات المالية غير الكافية. ولقد حصل أول خفض واسع النطاق لقيمة العملة الرومانية الفضية في عام ١٩٤م، وسرعان ما أصبحت هذه الممارسة شائعةً بعد ذلك.[٢٨٢] وخلال القرن الثالث الميلادي، كان التدهور الاقتصادي كبيراً جداً، حيث فشلت عوائد الإمبراطورية الرومانية في تغطية النفقات المطلوبة. وبدأت أجور الجيش في الانخفاض التدريجي في حين كانت الجيوش المرابطة على الحدود في حاجةٍ متزايدةٍ للمال لشراء المواد الغذائية والضروريات الأخرى. ولكن كون رواتب وأجور الجنود أصبحت زهيدةً وعلى نحو متزايدٍ عزف التجار من المحافظات الأكثر إنتاجية عن جلب بضائعهم للقوات الرومانية المرابطة على الحدود. وكنتيجةٍ لفشل النظم التجارية الأساسية، اضطر الجيش الروماني لاتخاذ تدابير أكثر قمعية، حيث حصل وبالقوة على احتياجاته الضرورية من المجتمعات المحلية المحاصرة.

وبعد قرن من الوباء الأنطوني، تم خفض قيمة العملة الفضية الرومانية حتى أصبحت أكثر بقليل من قيمتها الرمزية. ولقد قدم أباطرة القرن الثالث الميلادي في نهاية المطاف عملة رومانية منخفضة القيمة للتداول، مما تسبب بدوره في تضخم الأسعار.

ولقد نتج عن ذلك ارتفاع حاد في تكلفة سلع التجزئة. وأخيرا، قام الإمبراطور دقلديانوس بسلسلة من الإصلاحات لإعادة هيكلة نظام الإيرادات في الإمبراطورية الرومانية، ومحاولة استعادة وحدة العملة في الإمبراطورية. ومن الآن اعتمدت الإدارة الرومانية رسمياً دوراً أكبر في إمداد القوات المسلحة بالضروريات الأساسية. وتطلب هذا إنشاء بيروقراطية حكومية على نطاق أوسع بحاجة إلى تمويل من خلال زيادة الضرائب. ولقد قادت هذه البيروقراطية الكبرى أيضاً إلى زيادة احتمال الفساد الإداري. ولقد أصبح هذا الفساد سمة ثابتة في الإمبراطورية في وقت لاحق. وينبغي فهم الإصلاحات التي تمت في أوائل القرن الرابع على أنها محاولات لجعل الإمبراطورية الرومانية تعمل بشكل كامل اعتماداً على أساس اقتصادها الداخلي والإنتاج الخاضع للضريبة في هذا النظام المغلق.

كان تزايد البيروقراطية يعني أن الدولة الرومانية أصبحت كبيرة جداً على أن تُدار على نحو فعَّال من قبل حكومة واحدة. في هذا العصر تم تقسيم الإدارة الرومانية رسمياً ما بين الشرق الإغريقي والغرب اللاتيني.[٢٨٣] بقي الشرق الإغريقي مزدهراً؛ لأن الكثير من أراضيه كانت موجودة من قبل كممالك مستقلة غنية تسكنها مجتمعات حضرية كبيرة. على النقيض من ذلك كانت الدولة الغربية أكثر عرضة للسقوط إدارياً ومالياً. لقد تم بناء الإمبراطورية الرومانية الغربية حول المناطق الواسعة التي تم الاستيلاء عليها، التي تعتمد على الأراضي الزراعية الأساسية نسبياً. وفي العصر الذهبي للإمبراطورية الرومانية كانت العديد من المحافظات الشمالية تعاني نقصاً في الإيرادات. وكان جزءاً كبيراً من نفقاتها العسكرية يُدفع من قبل الحكومة المركزية. ومع أن هذه المناطق قد خضعت لتنمية اقتصادية كبيرة في ظل الحكم الروماني، إلا أنَّ احتمالية أنها لم تنتج كميةً كبيرةً من فائض الإيرادات للنظام الإمبراطوري كانت قائمة.

في القرن الثالث الميلادي دمرت الحروب الأهلية المتواصلة الفيالق العسكرية الرومانية المخضرمة التي كانت دائماً ما تميز الإمبراطورية الرومانية عن منافسيها الأجانب. لكن الجيوش الرومانية التي ظهرت في العصور التاليةلم تكن تمتلك التدريب، أو الانضباط، أو العتاد العسكري، الذي كان متوافراً لدى أسلافها. مع الموارد المالية المحدودة والقوات العسكرية المستهلكة، اضطر الأباطرة الرومان للاستفادة بصورةٍ أكبر من الحلفاء البرابرة في حروبهم ضد المنافسين والغزاة الأجانب. لقد استخدمت الأنظمة الرومانية السابقة القوات البربرية كحلفاء، ولكنه لم يتم دمج هذه المجموعات الأجنبية بسرعة مع سكان المحافظات سواء من خلال الاستيطان، أو من خلال الخدمة العسكرية. وكانت مثل هذه العملية الاستيطانية غير ممكنة في وقت متأخر من الإمبراطورية الرومانية، حيث أصبحت روما حينها تفتقر إلى المؤسسات العسكرية سواء للتغلب على هؤلاء السكان الأجانب، أو لاستيعابهم.[٢٨٤]

لقد وجدت روما نفسها مضطرةً للاعتماد على خدمة الحلفاء الجرمانيين لإنهاء حروبها الأهلية وصد المزيد من الهجرات البربرية إلى أراضي الإمبراطورية الرومانية. وفي القرنين الرابع والخامس الميلاديين وصل هذا الاعتماد إلى درجة غير مسبوقة، عندما بدأ سكان السهول، وكانوا يسمون "الهون"، في شق طريقهم بقوةٍ إلى أوروبا. لقد احتفظ المجتمع الجرماني ببراعته العسكرية، ولذلك استقر السكان الجرمان بأكملهم داخل أراضي الإمبراطورية الرومانية في مقابل تعهدات بالخدمة العسكرية. لقد عملت كل هذه التطورات على التقليل من الموارد الضريبية المتاحة أمام الحكومة الرومانية.كما عملت أيضاً هذه التطورات على إدخال مجتمعات كبيرة ومتكاملة داخل الإمبراطورية الرومانية، حيث ظلت هذه المجتمعات محتفظة بهوياتها الثقافية وانتماءاتها

الخاصة. ولقد عمد الجيش الإمبراطوري بتجنيد الكثيرين من هؤلاء السكان الجدد حتى أصبح الفرق بين "الرومان" و "الجرمان" غير واضح.

وجدت الأجيال المتأخرة من الإمبراطورية الرومانية الغربية نفسها معتمدةً على القادة الجرمان الذين كانوا يتمتعون بوضع قانوني في روما، لكنهم مع ذلك اتبعوا وعلى نحو متزايدٍ أجنداتهم الخاصة. لقد استفادت هذه القيادات الجرمانية من الدسيسة بين أفراد النخبة الرومانية التقليدية لفرض حكمهم. وانقسمت أوروبا تبعاً لذلك إلى الممالك الجرمانية التي دخلت بدورها في سلسلة من الصراعات، التي بلغت ذروتها في سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية.

من أجل استيعاب هذه الأزمة، كان الغرب اللاتيني بحاجةٍ إلى مساعدةٍ كبيرةٍ من الشرق الإغريقي الأكثر ازدهاراً. ولم تكن هذه المساعدة حينها ممكنة. وتحت حكم الممالك الجرمانية وجدت الأراضي الأوروبية نفسها مرة أخرى في حالة اقتصادية واجتماعية مشابهة لتلك الحالة التي كانت عليها قبل صعود الإمبراطورية الرومانية. لقد اكتشف أوروبا الغربية الآن أنه لا يمكنها الحفاظ على المؤسسات المعقدة دون الحصول على الموارد المالية من العالم الشرقي.

تركت روما الآن أراضيها السابقة في أوروبا مع احتفاظها بالانتماء للفن الكلاسيكي، والهندسة المعمارية، والتعلُّم. ولقد نجح الشرق الإغريقي من الإمبراطورية الرومانية تحت اسم "بيزنطة" في الاستمرار أكثر من الغرب اللاتيني بما يقرب من ١٠٠٠ سنة. وعندما سقط آخر ما تبقى من الدولة البيزنطية في القرن الخامس عشر الميلادي فرَّ العلماء المسيحيون من القسطنطينية إلى إيطاليا مع بقايا العلم الكلاسيكي الذي سيشعل بداية عصر النهضة فيما بعد.

لقد تمت دراسة خريطة بطليموس وتوقعاته من قبل جيلٍ جديدٍ من المستكشفين الأوروبيين الذين كانوا يسعون وراء الفرص التجارية المربحة في الشرق البعيد. هكذا بدأ ما يُسمَّى بعصر الاستكشافات The Age of Discovery، حين أجبر إغراء التجارة الشرقية الأوروبيين في أولى رحلاتهم على التنقيب لاكتشاف الطرق الغربية للهند. وعندما جلبت هذه الحملات الأوروبيين الأوائل إلى الأمريكيتين حمل المستكشفون منهم أشكالاً متحورة من الحصبة والجدري التي عصفت بالإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية الهان. وخلال أجيال من المعاناة والموت قام الأوروبيون بتطوير مقاومة الأجداد لهذه الأمراض، ولكن الشعوب الجديدة في أمريكا كانت معرضة لخطر مماثل لما تعرض له الرومان ذات مرة جراء الوباء الأنطوني. وفي الوقت الذي كان فيه السكان الأصليون لأمريكا يهلكون من قبل الأوبئة، مدَّ المستوطنون الأوروبيون سيطرتهم على موارد جديدة هائلة من القارتين الأمريكيتين. ولقد قادت عمليات اكتشاف الاحتياطيات الضخمة من الذهب المستخرج من أمريكا إلى تطوير اقتصاد أوروبا الغربية. كما أعطت هذه العمليات الاستكشافية زخماً جديداً لتطوير شكلٍ جديدٍ من التجارة الشرقية العدوانية وهكذا بدأت حقبة الاستعمار الأوروبي.

في العصر الفيكتوري، تمت إعادة كتابة تاريخ الإمبراطورية الرومانية باعتباره إنجازاً أوروبياً بحتاً وبتجاهلٍ تامٍ لمساهمة الحضارات الشرقية في صناعة هذا التاريخ، حيث أصبح نجاح وازدهار روما قصة تحتفل بالبراعة الأوروبية في صناعة هذا التاريخ. لقد ركزت عملية إعادة كتابة هذا التاريخ على تعامل نخبة ارستقراطية شملت بين أفرادها جنرالات وساسة وأباطرة، حيث لم تعطِ أي أهمية في هذه العملية الكتابية لتاريخ روما للتجار متعددي الأعراق الذين كانوا ذات يوم يتاجرون في الأسواق البعيدة. وأصبحت بذلك روما وثقافتها مبرراً للهيمنة الأوروبية، حيث قامت المذاهب

التي تم تدريسها في المؤسسات التعليمية الغربية بتشجيع هذه الآراء الاجتماعية عبر الأجيال اللاحقة.

نحن نعيش الآن في عصر تقوم فيه الحكومات بتوجيه مجتمعاتها وتدير اقتصاداتها في سياق عالمي. لقد كانت العوامل التي أدت إلى قيام الإمبراطورية الرومانية ومن ثم سقوطها من الاهتمامات الكبرى لعلماء القرن الحادي والعشرين. ويجب على الحكومات الحديثة إيجاد طرق فعَّالة للتعامل مع الاقتصاد البيني لتدير وبنجاحٍ التجارة العالمية، وتسيطر على الحركة الجماعية للسكان، وتنجح في استيعاب الثقافات الأجنبية. إنَّ آثار الحروب والكوارث الطبيعية، واستنفاد الموارد المختلفة، والتهديد المستمر من الأوبئة العالمية، تمثِّل مصدر قلق متجدد في عالمنا المعاصر. ولكلٍّ يمكننا تعلُّم دروسٍ جديدةٍ من العالم القديم وتاريخه.

لقد حان الوقت لكتابة تاريخ آخر للعالم القديم يعترف، بشكلٍ كبيرٍ، بمساهمة الحضارات الشرقية في تطور أوروبا منذ وقت مبكر. لقد كان الإنجاز الروماني غير عادي، كون إمبراطوريتهم كانت ترأس نظاماً اقتصادياً يقوم على استخراج المواد القيمة من الهند، والشرق البعيد، دون الحاجة إلى قهر أو قمع سكان هذه الأراضي الأجنبية الشاسعة. لقد استفادت الشعوب الشرقية من الثروة الرومانية، وحققت الحكومة الرومانية أرباحاً من التجارة الخارجية ليحقق كلا الطرفين النمو والازدهار. إنَّ الفهم الشامل للإمبراطورية الرومانية وتاريخها يحتِّم وضعها في نطاق الاقتصاد العالمي في العالم القديم. إنَّ وضع روما في سياقها القديم يجعل إنجازات الحضارة الكلاسيكية أكثر تعقيداً، وبكثيرٍ مما أدركه معظم علماء العصر الحديث.